صياد النساء

مجموعة قصصية

عباس مدحت البياتي

قصص قصيرة

صياد النساء

مجموعة قصصية

تأليف

عباس مدحت البياتي

اهداء

مجموعتي القصصية الجديدة هي باقة منوعة من الورود اهديها لكل امرأةٍ كانت فريسةً للحب، وإلى كل رجلٍ ظن أن القلوب تُصاد كما تُصاد الطيور. إلى أولئك الذين خاضوا لعبة العاطفة بشغفٍ أو بخداع، أهدي هذه القصص التي تنبض بالوجع، وتفضح الرغبة، وتكشف المستور.

وإلى تلك التي علّمتني أن الحب ليس وعدًا، بل احتمال خيانة. إلى النساء اللواتي مررن كالعطر، وتركن خلفهن ذاكرة لا تُمحى. هذه القصص تعبر قناطر الوصل إلى حافة الألم عن كل من أحبّ مثلكِ... وخسر.

القصص

1. سجين التذكرة
2. المارجيوانا
3. مفتاح الظهيرة
4. صياد النساء
5. فصيل الاستطلاع
6. رصيف الانتظار
7. عين الصقر
8. على ظهر الضوء
9. طريق الجحيم
10. جمرات البرد
11. النار والصقيع
12. الكابوس
13. غشاء القارب
14. رماد اللافندر
15. حين تكلم الصمت
16. في ظل الغربة
17. ظل نغمة ضائعة
18. شمعة لا تنطفئ
19. بين الرمل والنار
20. ركن القمامة
21. وشم الحقيقة
22. ركن القمامة
23. فتاة الكافتيرية
24. عهد الغروب
25. نبوءة الرماد
26. حجر القمر
27. غارة على مكتب سفر
28. ظل القمر
29. لحظة الأمان
30. ساعة اليقين
31. حين أيقن البرق الحقيقة
32. اختبار الرياضيات

سجين التذكرة

حين يُحنَى الظهر بفعل الزمن لا تعبًا فحسب، بل استسلامًا لانحناءات الحياة، تنكمش روح الإنسان كما ينكمش الظل مع هروب الضوء. هكذا بدا حميد الفرادنة ظله في عين معارفه وهو شيخًا تعدّى السبعين من العمر لائذا في الطرقات، تساقط منه ألق الفتنة، تبخّرت بقايا الكرامة في فصول الشتات المتعاقبة. لم يبقَ له من الدهر إلا بضع تجاعيد تُشبه خرائط العناء والهزيمة المتكدرة في الحياة.

كان قد لسعه جمر الفقر الذي يشتعل تحت جلده، ليذكّره كل صباح مساء؛ فالحياة لا تهب دفئها لمن لم يؤازرها ببيتٍ يستره أو أسرة تحتضنه أو يدٍ تواسيه وتنعم ظرفه. بقي قابع في زاوية الوحدة فريدا، كعابرٍ سبيل في هذه الحياة في قصة لم تُكتب له، وهو يتجوّل في أزقة وشوارع الموصل بات كطيف في ذاكرة معارفه، لا أحد يعيره اهتماما، ولا صدى صوت له إلا أنين جزع يتعبه، لا يسمعه أحد.

في لحظة ما تصالح مع الهوان، اختار أن يلجأ إلى آخر خيط يربطه بالماضي، عسى أن يعينه على جلد الزمن، إلى رفيق العمر ماجد القاطن في بغداد، والذي عصفت به الظروف يومًا كما عصفت بحميد، لكنه تجرأ وتغلب عليها حتى تجاوز سخطها، صار تاجرًا مرموقا في شورجة بغداد. فكر أن يلتجأ لصديقه، يحاول إشعال شمعة في عاصفة الماضي، ود أن يتكئ ولو مرة على ذكرى آزرته يوما ما.

لكن حتى الرحيل لابد له من ثمن، حيث حميد لا يملك فلسًا أحمرا في جيبه، لكنه أقبل على محطة قطار الموصل كمن يُسلّم نفسه للقدر وعسى أن يشمله بعطفه، تمنى ألا يرفضه القطار كما رفضته الدنيا.....

عند باب العربة أوقفه الجابي بسؤاله البارد الذي كان كحد السيف على قلبه. طالبه بتذكرة السفر.. لكن حميد لم يشتري تذكرة، بصوته المبحوح المشظى بين الرجاء والانكسار، قال له: ـ --

- لا أملك مالًا.

عندها أعرض الجابي عنه، علمته التجارب أن لا يلين مع هؤلاء المتكلين، أغلق الباب على حلمه، لم ينحني لانكساره تجنبا للعقد....

وبينما كان ينكفأ في عتبة المذلة دون أن يجد حلا لعقدته، سمع حديثه مع الجابي شرطيان كانا يقتادان سجينًا لبغداد. لم يلتقطا الصوت فقط، بل شعرا بحجم الانكسار والعناء في عين الرجل. وبعد همسٍ وتشاور، عرضا عليه فكرة:...

- يا عم، ما رأيك نصحبك معنا كسجين، نقيدك بالأصفاد، لكنك ستصل بغداد.

ضحك حميد لأول مرة منذ أعوام، لم تكن ضحكة فرح، بل انتصار صغير على الجابي والأبوابٍ التي أوصدتها عليه الأقدار، أنها فكرة مجنونة.

- أنها فكرة ذكية شكرا لكما.

وهكذا وضعوا القيد في معصمه، صار سجينا رغمًا عنه، أجلسوه إلى جانب السجين الحقيقي وشرطيين يخفيان في داخلهما ابتسامة العبث. كان المشهد سرياليًا، كأن الحياة تختبر خيال الرواية.

خلال الطريق سأل السجين الحقيقي حميد الفرادنة:.....

- يا صديقي قل لي ما تهمتك؟ هههههههه.
- أنت أدرى مني بالتهمة، لا أملك تذكرة سفر. ههههههههه.
- والله يا عم هذه الأصفاد لن تحزم معصم يد إلا وهو في حياته قد أرتكب جرم ما، قلي بصدق؛ ماذا فعلت في حياتك؟ سرقت؟ أم زنيت؟ أم قتلت بريئا؟..
- تراك صاحب خبرة يا صديقي، عنوة تود أن تضع حبل المشنقة برقبتي. هههههههه... قلي ماذا عنك أنت؟ لم هذه الأصفاد في يديك؟
- قتلت زوجتي في بغداد، بعد أن مسكتها تزني. هربت للموصل وتم القبض عليَّ.
- انصحك لا تعترف، ابقى صامتا قدر الإمكان.
- وهو كذلك.

وبين المزاح والغفلة مع صاحبه، كان قد سقط مفتاح الأصفاد من يد الشرطي من نافذة القطار وهو يجري بسرعته. سقط دون قصد، ككل القرارات التي غيرت حياة حميد الفرادنة. وهكذا، لم يبق أمامهم سوى أن يفكان صفده عند الحداد. المشكلة التي حصلت لا تخص السجين الحقيقي أنما تخص حميد الفرادنه المصفد ساعديه. حيث لا يستطيعان فك اصفاد

اغلالـه فـي داخـل مراكـز الشـرطة، لأنـه فيهـا مسـؤولية تقـع علـى عـاتق الشـرطيين، قـد تنـزل بهمـا العقوبـة وقـد تصـل إلـى أن يطـردا من العمل أو يسجنا على فعلتهما النكراء والغير مسؤولة.

وعنـدما وصـلوا بغـداد احتـاروا فـي فـك صـفده، اسـتأجروا عجلـة أجـرة يقودهـا سـائق خبيـرٌ فـي المدينـة بشـغف المؤمن. أرشـدهم إلـى حـدادٍ فـي منطقـة العـلاوي قـرب المحطـة العالميـة للسـكك، كأنّـه كـان ينتظـر هـذا اللقـاء منـذ سـنين ليكتـب فصـلاً جديـدًا فـي حيـاة حميد.

مـع محاولـة الحـداد فـك القيـد، اوقفـه وشـم علـى كـف حميـد، أضـاء في ذاكرته شرارة لم تخمد، فسأل الحداد حميد: –

- من أين أنت؟
- من الموصل.
- من أي عمام؟
- من عرب الفرادنة.
- ما اسمك الثلاثي؟ –
- حميد جبار علي الفرادنة.

وهنـا، انـتفض الحـداد مـن مكانـه، وتسـارعت نبضـات قلبـه. قـال لـه وهو يحنق عليه: ...

- أنـت قاتـل أبـي. قتلتَـه وسـرقت أموالـه، وهربـت منـذ ٣٥ عامًـا. عرفتـك مـن الوشـم... وهـا أنـت الآن جلبـك الحـق إليَّ.

حـاولا الشـرطيان إقناعـه بفـك القيـد، لكنـه أصـر أن يُسـلّمه للعدالـة. علـى ضـوء ذلـك أعيـد حميـد إلـى الموصـل، وهنـاك تـم تأكيـد

القضية. اعترف، وواجه حكم الإعدام الذي صدر عليه غيابيًا منذ ثلاثة عقود ونيف. هكذا، تمخضت الأحداث، وانتصرت العدالة بصبرها، ونُفذ فيه قول الحق: "وبُشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين."صدق الله العظيم.

الماريجوانا

في كييف، حيث الثلج يكسو الأرصفة كوشاح أبيض، عشت أيامًا لا تُنسى مع عائلة أوكرانية، مدفوعًا بعاطفةٍ جموحة نحو ابنتهم الجميلة "بيكي". كنت قد زرعت نبتة القنب " الماجيوانا" في حديقتهم، وادّعيت أنها الزعتر البري السوري، فصاروا يعتنون بها كما يعتنون بي، يسقونها، ينقّون جذورها، غير مدركين أن تلك النبتة تحمل في طياتها نشوةً لا تشبه نكهة الزعتر أبدا، لا يدركون هي من نوع المخدر تستخدم طبيا.

في الحقيقة يستخدم لعلاجات طبية نفسية أو ترويحية وترفيهية، كما يمكن استخدام القنب بالتدخين أو التبخير كالحشيش للمتعاطين أو وضعه داخل الطعام أو عصر أنزيماته كمستخلص. للقنب تأثيرات عقلية وجسدية سريعة، مثل الشعور بالنشوة والنسيان، يؤدي إلى تغير الحالة الذهنية من حال لحال مع الإحساس بالوقت، كما تؤدي إلى صعوبة التركيز وتحسين المزاج لدى المتعاطين، كما تؤدي إلى احمرار العينين واسترخاء البدن وزيادة الشهية والبهجة والشعور بالنعاس. وهذه التأثيرات تصبح ملموسة ومحسوسة في غضون دقائق بعد التدخين، وبعد حوالي ساعة عند تناولها عن طريق الفم. تستمر الآثار الجانبية لمدة ساعتين إلى ست ساعات وحسب الجرعات المأخوذة.

في أحد الأيام، وبينما كنت أتهيأ للخروج مع صديقي "أمير" ورفيقتينا الجامعيتين، عدت إلى بيت بيكي لأخذها، فوجدت والدها جالسًا فوق البلكونة كطائرٍ اللقلق، غريب الطباع، يرتدي شورتًا أزرق وفانيلة، يضحك ويغني رغم البرد القارس.

سألته إن كان قد شرب الكحول، فأشار بالنفي وهو يضحك ضحكةً هستيرية.

صار يضحك ويتغنى وهو يقول :

- شعرت بالضيق وبالحرارة في الداخل، هنا الطبيعة جميلة.

دخلت البيت، فوجدت الأم في المطبخ، شبه عارية، ترقص وتضحك بجنون، عندها صاحبي سحبها نحو الفراش كمن يود مشاركتها رقصةً من عالمٍ آخر. أما بيكي، فكانت مستلقية على الأريكة دون هدم، تشاهد أفلام كرتون. قلت في ذاتي ربما قد أكثروا من شرب الويسكي والخمرة. قلت لها:...

- ما بكم يا بيكي؟ هل شربتم الجعة؟

- لا ولكن هل تعلم بأن هذا الفلم الكارتوني هو من اخراجي أنا......

- أنت متأكدة، ههههههههههههههههههه.

- هل عندك شك بقدراتي؟

- لا مجرد أريد أن افهم؟

- اذهب للمطبخ تغدى وتعال نم إلى جانبي.

في المطبخ وجدت دجاجًا شهيًا وسلطةً غريبة، أوراقها ليست إلا من نبتة القنب التي زرعتها. عندها سألت بيكي:...

- هل حشتم اوراق الزعتر البري؟

- أجابت ضاحكة: "لم نجد زعترا في البيت، فحشنا من نبتتك المباركة"!

خرجت أبحث عن جدتها، فوجدتها تركب دراجةً صدئة، تجوب بها الشوارع كفتاةٍ مراهقة، تضحك وتغني وتدعوني للركوب خلفها.

عدت إلى البيت، ضاحكًا، تغديت واحتضنت بيكي، بينما والدها لا يزال يحرسنا من فوق السطح، كديكٍ منتشي بنشوةٍ لا يعرف لها سببًا.

مفتاح الظهيرة

في ذلك المقهى العتيق بساحة المدينة، حيث الحجارة تشهد على قرونٍ من أسرار العابرين عليها، جلس عمر وحسن يناقشان فرص الغد في شراكتهما. بينما هما مشغولان في أمور فكرية؛ كانت القهوة قد فقدت حرارتها، كما لو أنها استسلمت لصمتٍ دار بينهما أثقل من الكلام.

عيون حسن زحفت خلف حركة الناس بلا هدف، بينما عيون عمر تبعت عيون حسن دون أن تفقه غايتها، هجس بأنَّ خلف النظرات الخافتة تكمن عاصفة، غامضة ومؤجلة. أما حسن، فكان يتأمله بصمتٍ محتقن أن يتجاوز صمته، عندها شعر عمر بأنَّ صديقه لم يعد كما كان، كأنه قد تغير فيه شيء جوهري دون أن يعلم، لكن لا يعرف كيف يبادر بسؤاله كي لا يخسره.

عندها قطع حسن السكون بنبرة لا تخلو من غموض قائلا:....

- تظن أننا نعيش بالصِدف؟

أجاب عمر بهدوء مرتبك:...

- ربما أحيانًا الصدفة تكون معبرا لجهة الأمان، وقد تحضر لتغيّر مجرى الحياة.

هنا، ابتسم حسن ابتسامة لا تُفصح عن شيء، ولكن أخرج مفتاحًا صغيرًا من جيبه، مفتاحا صدئًا وضعه أمام عمر على الطاولة. قال بصوتٍ بالكاد يُسمع:...

- الصدفة؟ يمكن... ويمكن في أمور انكتبت منذ زمن بعيد وأغلقت أبوابها، واليوم جاء وقت فتحها.

عندها شهق عمر بصمت، شعر بغصّة في حلقه وبدأ يشك إن ما يعرفه عن حسن ليس سوى سطح لا يكشف ما تحته، كأنّ ذلك المفتاح لا يفتح بابًا، بل ماضيًا كان يظنه قد أغلق إلى الأبد، وأن ما يعرفه حسن عنه أكثر مما يعرفه عن حسن.

صياد النساء

في عام 2010، بدأت حكايتهم مع دخولهم إلى الحرم الجامعي في باكو عاصمة أذربيجان كتلاميذ مرحلة جديدة. أربعة شباب عرب اجتمعوا من بلدان مختلفة؛ حسن من العراق، تركي من السعودية، أحمد من سوريا، ويوسف من لبنان. سرعان ما توطدت العلاقة بينهم، فوجدوا في صداقتهم متنفسًا من الغربة وعونًا في الدراسة والحياة اليومية، خصوصًا أنهم كانوا يدرسون ذات التخصص إلا وهو الاقتصاد.

سكنوا في شقق مريحة وسط المدينة إلا حسن، كان قد اتخذ مسارًا مختلفًا عن زملائه؛ اختار الإقامة في الأقسام الداخلية داخل الحرم الجامعي بسبب ظروفه المادية. في سكنه قرب الجامعة وفر مصاريف الذهاب والإياب وأكل المطاعم إضافة لسلاسة الوصول لكليته. القسم الداخلي كان مقسمًا إلى منطقتين؛ سكن الطلاب يليه بعد نحو مئتي متر سكن الطالبات، وبين المبنيين كانت تقع المطاعم والحدائق المشتركة. كان وصول الطالبات لسكنهن يتطلب أن يمروا بسكن الطلاب في مدخل الجامعة.

في أوقات فراغه، سواء كان بمفرده أو برفقة أصدقائه، اعتاد حسن زيارة سوق "البالة" للملابس المستعملة. ما لفت الانتباه هو تركيزه على اقتناء الملابس الداخلية النسائية، النظيفة والنوعية الجيدة. وعندما سأله زملاؤه عن سلوكه مستغربين اهتمامه بهذه النوعية من الملابس، أجابهم بكل بساطة قائلاً:...

- في ظل الأوضاع المتأزمة التي عصفت ببلدي جراء الحرب واختلال التوازن السياسي والاقتصادي، أصبحت هناك حاجة لكل شيء، الأزمة تُغرز أنياب الفقر في جسد الشعب العراقي المسكين دون رحمة.

في هذه الظروف، بدأ صديقه السوري أحمد يشك بسلوك رفيقه العراقي، إذ لم يجد تفسيرًا منطقيًا لتصرفاته الغريبة. ورغم تبريرات رفيقه، لم يقتنع أحمد بما يدعي، فقال له بصوت عالٍ:...

- يا رجل، أنت كذاب! هل النساء وحدهن تأثرن بالحرب؟ ألم يتأثر الرجال والأطفال؟ ثم لماذا تشتري فقط الملابس الداخلية النسائية؟ لمْ أرَك تشتري قطعة ملابس نسائية أو رجالية واحدة منذ أن عرفتك! لأكثر من ستة أشهر وأنت على هذا المنوال، لقد بتّ أشكّ في كونك إنسانًا سويًا. ولسوء الحظ، نتيجة معاشرتي الطويلة لك وجدتك طيبا، لكني سجلت هذه الملاحظة عنك. أخبرني، ما سرك؟

ردّ عليه الآخر بهدوء:....

- ولمَ أُطلعك على سري؟ هل أنا أعرف أسرارك؟

أجابه أحمد باستياء:.....

- أنا لا أملك أسرارًا، فأنا واضح وصريح .
- وأنا كذلك، ليست لدي أسرار... وكل إنسان حر في تصرفاته.

انتهى النقاش عند هذا الحد. افترقا دون أن يصل أحمد إلى مبتغاه. ظل اللغز عصيًّا على الفهم، رغم مراقبته الدقيقة لرفيقه، ولم يتمكن من فك الشيفرة المحيّرة التي تحكم تصرفاته.

بمرور الوقت، لاحظ زملاؤه سلوكيات غريبة، بل وصفوه بالأرعن. وأكثر ما أثار شكوكهم هو استغلاله فرص دخول المقبرة عند مساء الأحد والجمعة، حيث يجمع الزهور التي يضعها أقارب الموتى على القبور، ثم يبيعها عند تقاطعات طرق العجلات أو في المواقف العامة المزدحمة. بثمن تلك الزهور، كان يشتري ملابس النسائية من البالات - حمالات صدر، وكلسونات، وحواضن صدر - دون أن يعرف أحد سبب هذا السلوك الغريب. واكتشفوا أنه يملك قدرة رهيبة على الإقناع والتلاعب، إذ تمكّن من إرشاء الشرطة ومسؤولي الأقسام الداخلية وموظفي الجامعة والحرس الجامعي.

كل ذلك جعلهم يصفونه بأنه ذا تركيبة هجينة لا تخضع للمنطق. بات في نظر الجميع لغزًّا محيرا، حيث لا تفسير لسلوكه، ولا فهم لما يفعله بكل تلك الملابس النسائية. وعلى الرغم من مراقبة أحمد له لوقت طويل، لم يصل إلى أي نتيجة واضحة. بقي الغموض يلفّ تلك الشخصية، وبقيت خفاياه في طيّ الكتمان...

بينما كان يوسف وتركي يتشاركان مع أحمد فكرة التدقيق والتمحيص، متتبعين الحذر في سلوك حسن بصمتٍ وتمعّن، كلٌّ من جانبه صار يتتبع لغزه، مستعينًا بمهارته الخاصة، بهدف كشف مستور حسن الذي بات شغلهم الشاغل. فقد سمي من قبل الجميع بالرجل الغامض الوطواط.

ولتشدده وسكوته؛ اتفقوا فيما بينهم على التعاون في كشف سره وفضحه على الملأ، إن استطاع أحدهم فك طلاسمه.

رغم هذا، كان حسن يملك الفطرة في الطرفة والنكتة، ما أن يجلس بينهم حتى تشتد الألفة والضحكة، فلم يستطيعوا الاستغناء عنه لأنه يشغلهم بوجوده وغيابه، فقرروا الاقتراب من حسن قدر المستطاع. حسن لم يكن غافلاً عن نواياهم، ظل متيقظًا كالقط. لكنه، في الوقت ذاته، كان بحاجة إلى صاحب يخفف من وطأة الغربة والوحدة. وكان قد اعتاد زيارتهم مرة إلى مرتين أسبوعيًا، يطبخ عندهم، ويغسل ملابسه، ويأنس بهم ويسهر معهم، دون أن يُفصح عن طبيعة سره.

كان يستغلهم ليأكل ويشرب دون أن ينفق، وإذا اضطر للمبيت، لن يتردد بذلك، ليحافظ على بعض الدولارات في جيبه. وهم، بصفتهم أصدقاء، لم يبخلوا عليه بالعطف، خاصة بعد أن رسم لهم صور مأساوية عن وضعه الاقتصادي المتدني، وأنه ينحدر من عائلة فقيرة، بل إن الملابس التي يشتريها كان يرسلها إلى ذويه في العراق.

في إحدى المرات، باغت أحمد السوري صديقه حسن بأسئلة أحرجته، قائلًا له:

- يا حسن، أنت فقير الحال، أحيانًا لا تجد في جيبك ما يكفي قيمة عشاءك، ومع ذلك تذهب يوميًا إلى سوق البالة وتشتري ملابس نسائية! دعني أسألك بصراحة، وأرجو أن تجيبني بصدق: من أزّمته الفقر، يحتاج إلى حاضنة أثداء وبكيني؟ أم إلى ملابس تستر بدنه

الخارجي وتصون كرامته؟ ثم إنك مرتين في الأسبوع تغسل ملابسك عندنا، لأنك لا تملك غسالة. لمَ كل هذا الإسراف واللف والدوران؟ لماذا لا تشتري لنفسك غسالة بدل العناء والمذلة؟

رد حسن بنبرة جدية ممزوجة بغموض:...

- لو أخبرتك بالسر... هل تحفظه؟
- أكيد، وهل تظن بأخيك سوءًا؟
- أعلم خبثك، لكنك الأقرب إلى قلبي من بين الشلة...

ضحك أحمد وقال.....

- وأنا أعتز بك يا نذل، لأنك لا تثق بي!
- ولكن عليك أن تصمت، أن تخرس تمامًا، لا أريد أن أسمع منك لغطا ولا فرفشة ولا حرفًا واحدًا.
- والله سأصمت... وأخرس.

قال له ذلك وهو يبحث عن مخرج من هذا الجدل المتكرر مع أحمد، فأخذه إلى القسم الداخلي من الغرفة، وأشار إليه بالدخول إلى خزانة الملابس وترك الباب مفتوحًا قليلاً ليتمكن من مراقبة ما سيحدث أمامه. كانت غرفة حسن مميزة بتنظيمها، حيث عرض ملابس البالة على الجدران والنوافذ بطريقة محترفة، تنم عن حسٍ تجاري رفيع.

في قلب سكن جامعي تغلي فيه الأحلام أكثر من إبريق الشاي على نار هادئة، عاش حسن دور "العالم المجنون"... لكن بدل أن يخترع الذرة، توصل لفكرة عصت على رفاقه تفسيرها،

جعلتـه يقبـع فـي حـوض جاذبيـة لا يمكـن تقليـده فـي جـذب النسـاء، دون أن يخلـــع حـــذاءه، ولا حتـــى يرفـــع حاجبـــه. بينمـــا كـــانوا أصـــدقاؤه- أحمـــد ويوســـف وتركـــي- يتقلبـــون بـــين الديســـكوهات وزوايـــا الحـــوارات البائســـة، يحـــاولون اصـــطياد فتـــاة أو يحضـــون بإعجـــاب عـــابر، فـــلا يحصـــدون ســـوى إحباطـــات تصـــلح لكتابـــة ديوان شعري عن الخيبة.

كـان حسـن يهجـس بالنسـاء كصـنف الأسـماك! فلابـد واحـدة مـنهن تسـقط فـي الشـباك الخفـي الـذي نصـبه لهـن، وهـنَّ يتـبعنَّ الطُعـم المرمـى أمـامهنَّ... فلـم تمضـي سـوى دقـائق معـدودة حتـى دخلـت أحـدى الفتيـات الجمـيلات بفتنتهـا وطولهـا الرشـيق الغرفـة، بخفـة اللـــص بخطـــوات هادئـــة، أغلـــق البـــاب والنافـــذة دون أن يلفـــت انتباههـــا، كـــان حســـن يـــراهن علـــى فضـــول الزائـــرات، عارضًـــا بضـــاعته بأسـلوب ملفـت، متقنًـــا فـــن التـــأثير. مـــا أن دخلـــت حتـــى سـلّمت عليـه برقـة، فـردّ التحيـة بلباقـة... ثـم بادرهـا الحـديث بنبـرة ودودة:.....

- أنـا فـي الأصـل ابـن تـاجر، تعلمـت فـن التجـارة منـذ الصـغر. إذا أعجبتـك أي قطعـة مـن هـذه الملابـس، يمكنـك أخـذها مباشـرة، أو بالتقسـيط، أو حتـى مجانًـا إن كـان ذلـك يـؤثر على جيبك.

نظرت إليه بدهشة قائلة:...

- أكيد؟

ابتسم حسن:....

- طبعًا، الأمر بسيط.

انتقت حاضنة ثدي وبكيني وبنطلون جنس. حينها تقرب منها وصار يتلمس جسدها ثم بدأ يداعب الأماكن الحساسة، ثم احتضانها، ثم صار يقبلها ويخلع ملابسها وهي لا تفعل حيال سلوكه شيء، ثم بدأ يدعك جسده بجسدها ويتحسس ردة فعلها حتى ارتخت بين يديه وذابت في حجره كشمعة أفل ضوئها، طرحها على فرشته وصار يدعك بها حتى أفرغ طاقته وأحمد لم ينبس بشفة، كأنه يشاهد فلما سينمائيا. بعدها ارتدت ملابسها وأخذت حاجتها وخرجت دون أن تلتفت للخلف وكأنَّ شيئا لم يحصل .

أما أحمد المحبوس داخل الخزانة والذي كان قد شط هو الآخر وهو يرى جسدا من مرمر أمامه، استنشاط دون أن يتنفس أو يتحرك عن مكانه قيد شعرة، لزم الصمت وفاءً بوعده لحسن، لكن عينيه صورت الحدث وأودعته دماغه. دهش وذهل من سلوك حسن، مستغربا مما رأت عينيه، عندها تفهم ذكاء حسن... فيما كان وزملائه يتبعونهن كالكلاب دون جدوى..

لم يكن حسن يعلم أن سرّه سيكون قصاصة تُتداول بين رفاقه. ما إن غادر أحمد الخزانة، حتى فرّط عقد السر بين يوسف وتركي. في اليوم التالي اختلفت الأمور، وكأنها انعطفت إلى مسرحية جماعية، إذ تحول الثلاثة من شققهم إلى القسم الداخلي، راحوا يتبعون ذات النهج الذي رسمه حسن لنفسه هههههههه.. لكن بأساليب أكثر تطورا وفتنة.. حيث تركي المدلل ذا ثراء فاحش، كان قد قلب المعادلة لصالحه، صار يشتري الملابس الجديدة الجاهزة والإكسسوارآت والاسوار والأقراط والمحابس الذهبية بدلا من ملابس البالات التي كان يجلبها حسن، بذلك صار يجذب الفتيات إليه، ما أشعل فتيل النفور في قلب حسن.

عندها انسحب من المشهد مستأجرًا شقة خارج أسوار الجامعة، يجرّ وراءه خيبة سرّ أفشي وعلاقة زمالة تصدعت.

بقيت تلك اللحظة تدور في فلك الذاكرة حين تحطّمت جرة حسن، لتكون فرصة هزر ومرح وأنا ساخرة تثير فيهم البهجة، بدا عصر جديد مشوش بالجرأة.. عندها ضحك الجميع، لا لأنهم فهموا اللعبة، بل لأنهم أصبحوا نسخًا طبق الأصل من حسن في صيد النساء.

فصيل الاستطلاع

في أحدى ليالي العتمة من آذار عام 1983، كنت والمخابر سالم نتبع الهدوء السائد بحديث عن أنواع التمور في الزبير، حيث دائما ما يكرمنا سالم بتمور من بساتينهم. كان الهدوء كان مخادعًا، بين فترة وأخرى تنذرنا قذيفة أو إطلاق رشاش لا نعرف مصدره، كان الظلام يبتلع كل شيء... حتى الرجاء لم يعد سقفا نحتمي به لسواد الأفق. غطّت الغيوم وجه السماء فأغشت القمر والنجوم بخمار داكن. في تلك العتمة التي لا يُبصر فيه المرء صاحبه عن بعد خمسة أمتار كانت قد تاهت دورية استطلاع للفوج في أرض الحرام. أرض صحراوية مسطحة مع النظر، بحيث لو وضعت بيضة على بعد كيلومتر تشاهدها بأم عينك لاستوائها تماما. وأغل ما فيها الأَتَاوِهَة المتشعبة في الأرض وفي النفس. حيث لا عبث بها سوى تلك السواتر المشيدة من قبل الوحدات العسكرية لتحميهم من عبث الشظايا وغل الرصاص العشوائي المطلق عليهم.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف حين اتصال بي آمر الفوج الثاني بلواء 503 مشاة يطلب من إنقاد الدورية من التيه. فُقدت مسارها في وسط حقول الألغام في متاهة من طرق بين حجابات الجيشين. حيث قال لي:....

- دورية الاستطلاع تاهت بين حجاباتنا وحجابات العدو، وأمامك مهمة إنقاذهم يا بطل عبر الناظور الليلي.
- حاضر سيدي دقائق فقط...

الدوريـة، المؤلفـة مـن مـلازم وعشـرة جنـود، دخلـت أرض الحـرام للاسـتطلاع، لكـنهم تـاهوا كمـن عصـبت عينـاه فـي دجنـة لا يُعـرف فيهـا اليمـين مـن اليسـار. كـأنَّ العشـو الليلـي سـلبهم القـدرة علـى الإدراك والتبصـر، بـاتوا يـدورون حـول أنفسـهم فـي حلقـة مفرغـة مـن الخـوف والحيـرة دون أن يصـلحوا حـالهم، تقيـدهم هـواجس الخـوف مـن انفجـار لغـم يلحـق بهـم أو نـواظير العـدو تكشـفهم. حتـى جهـاز الحـك النجمـي(البوصـلة) عجـز عـن إنقـاذهم لقتامـة الأجواء.

فـي المرصـد، جلسـت أمـام الجهـاز الـذي يعمـل تحـت الأشـعة الحمـراء السـينية لرصـد الأجسـام ذات الانبعـاث الحـراري، الجهـاز كبيـر الحجـم يقـارب قطـر العدسـة 25 سـم وارتفاعـه 50 سـم. يعمـل لكشـف البشـر والحيوانـات والعجـلات والـدبابات المتحركـة.. عنـدها رصـدتُ تجمـع الدوريـة كأشـباح فقـدوا تـوازنهم، جلسـوا حـول الضـابط فـي حالـة إنـذار داخلـي، ينتظـرون خلاصًـا يـأتيهم من السماء.

لـم تكـن المهمـة سـهلة. حقـول الألغـام تحـيط خنـدق الممشـى الـذي يسـيرون فيـه، العتمـة أغلقـت المنافـذ عـن البصـر.. عنـدها تمكـن الجنـدي سـالم مـن الاتصـال بهـم عبـر الجهـاز اللاسـلكي، عنـدها طلبت من الضابط اتباع الرشد لأنقذهم من المتاهة.

بدأت بإرشادهم، خطوة بخطوة:

- اتجـه يمينًـا عشـرين متـراً... هنـاك منعطـف، خـذ يسـارًا... قـف، تراجـع، أنـت تتخـذ الاتجـاه المعـاكس تسـير باتجـاه العدو...

الكلمات كانت خيوطًا من نور تشق عتمة الليل. في البداية أتخذ الملازم قرارات عكسية، والجنود يتبعونه كأنه أعمى يقود مجموعة مكفوفين. كانت المسافة بين أوّلهم وآخرهم لا تتجاوز عشرون متراً، لكنها بدت كمئة عام من التوجس والحذر. كانت الدورية في وضع مزري عبثي، بحيث إذا ما أرشدهم يمينا يتجهون يسارا واذا ما وجهتهم للأمام يتراجعون للخف، وأن طلبت منهم أن يتخذوا يدهم اليمنى دليلا لهم يتشتتون في الاتجاهات الأربعة لأنهم لا اتجاه لهم في وقفتهم، وهكذا دواليك تعسرت الحالة عليهم، عندها طلبت من الضابط أن يصغي بإمعان.

- ارجع عشرة خطوات، خذ الجهة اليمنى، أمامك مدخل باتجاه حجاباتنا يوجد بجانبه شاخص خشبي، أدخل منه، الطريق ينحرف باتجاهين يمينا ويسارا، أنحرف لجهة اليسار، بجانبك اسلاك شائكة تابعة لحجاباتنا، سر بمحاذات الأسلاك عشرين متر، الآن أتجهه يمينا ستدخل لبوابة الحجابات، احسنت امضي في طريق انت باتجاه الصحيح.

كلماتُي كانت قناديلَ ضوء في ممرات العتمة. كنت أرشدهم كأنّي أمسك بأيديهم. ارتفعت ثقتهم، تلاشت العشو الليلي، واستعادوا رشدهم. وحين وصل الملازم إلى مدخل الحجابات، قال لي:...

- شكرًا لك يا طيب، وصلت.

- أصحابك خلفك، لم يدركوا الفتحة بعد..

وهكذا، نادى عليهم الملازم، واستدلوا على الطريق بصوته، وتتابعوا واحدًا تلو الآخر، حتى اكتمل العدد وعادوا سالمين. لم تكن لحظة عابرة، كانت ولادة جديدة لأرواح هؤلاء وقدر ومسؤولية لي، أعطتني ثقة بذاتي رغم حداثتي في الميدان.لم تكن مجرد مهمة، بل موقف إنساني استثنائي أظهر أن البطولة لا تحتاج إلى بندقية دائمًا، بل إلى قلب يقظ، وعقل صبور، وروح لا ترتجف أمام العتمة، تلك الليلة صنعت مني رجلًا يعرف قيمة وجوده في المكان.

رصيف الانتظار

مرّت الحرب كقطارٍ أعمى يدهس كل ما يصادفه، لا يفرق بين حجرٍ وحلم، بين طفلٍ ونخلة، بين قلبٍ ينبض وعقل ينزف منذ الأزل. ولم نكن سوى حفنة من الحالمين نقف على دكة الأماني، ننتظر أن تقلّنا قاطرة الأيام إلى المستقبلِ المجهول أشبه بصورَ أحلامنا، تلك الصور التي صارت شاحبة بفعل التكرار والصمت.

كنا هناك، نجلس على الرصيف الأجرد، لا ظلّ يظلنا إلا ظلّ أحلامنا. نحدّق في السماء، لا نسألها شيئًا، بل فقط نُبقي أعيننا معلقةً بها تترجى يقينا يغير واقعنا. خبرا يبسط غدنا. تمرّ أمامنا العجلات العسكرية وهي تدهس الوجوه والآمال دون أن تراعي الشعور، تاركة لنا المكان ساكناً إلا من صدى أنفاسنا المختنقة.

" همس أحدنا بأن الاحلام طويت، دون أن نعلم إن كان يتحدّث عن ما مضى أو عن ما سيأتي. كنا نعرف أن الدولة تُحكم قبضتها على كل منافذ التحرر، على الأبواب والنوافذ، وحتى على الأناشيد.

ومع كل هذا، كان هناك طفلٌ يرسم على الجدار قاطرةً خضراء، وامرأةٌ تغني في الليل بلا موسيقى، ورجلٌ يكتب على ورقٍ مسروقٍ من أرشيف القهر. كنا نحاول، ربما لا لننتصر، بل فقط لنُثبت أنّ الحياة لازالت ندية، وأنّ الحلم حتى لو دعس، لا يموت أبدا. عندها وجدنا الرصيف فيه روح يطاوع البقاء، وإن القاطرة القادمة ستأتي لتقللنا لمآربنا.

عين الصقر

فــي حــيٍّ صــغيرٍ تحاصــر جدرانــه أحــلام الأطفــال كمــا تحاصــر العيــون نــور القمــر، كــان ســامر ينمــو كشــجرة صــغيرة لا يعــرف أحدٌ نـوع ثمارهـا بعد، لكنـه كـان يرى نفسـه مـن الأعلـى، يـرى الغد بعين الصقر لا بعين العابر.

لــم يكــن العيــد مجــرد مناســبة؛ كــان طقسًــا مقدسًــا يتشــح فيــه بالدشداشــة البيضــاء التــي تشــبه صــفحة المســتقبل. تلــك الليلــة، ظــل يتقلــب بــين أمانيــه، يرســم علــى جــدران غرفتــه صــورًا لأمــاكن لــم يزرهـا، يبتسـم كلمـا خطـر لـه أنـه فـي يومٍ مـا، سيصـبح اسمه لامعًا كنجمةٍ في سماء المعرفة.

كــان يحــب الصــعود إلــى ســطح بيــتهم فــي الليــالي الصــافية، يتأمــل القمــر كأنهمــا صــديقان يتبــادلان الأســرار. حــدّق ذات ليلــة طويلــة وهمس:....

- ســأصــبح شــيئًا يُــذكر، ســيتحدث القمــر عنــي فــي غيــابي، وستقرأ النجوم قصتي في نورها.

وخبــأ تلــك الكلمــات فــي دفتــرٍ صــغير بــين كتبــه المدرســية، لا يعـرف أحـدٌ أنـه كـان يرسـم وجـه فتاتـه هنـاك، يكتـب اسـمها بحـذر كمن يبني قدره بحرفٍ حرف.

مــرت الأعــوام وســامر يكبــر... تتغيــر المدينــة، النــاس، الأصــوات، لكــن عينــه لــم تتغيــر. لا زال يحمــل نظرتــه الحــادة، يحفــر فيهــا طريقــه رغــم كــلّ الشــكوك التــي تتلــون. يقولــون عنــه "غريــب"،

لكنه كان يعرف أنه ليس غريبًا، بل متقد، لا يشبه الذين رضوا بالقليل من الحلم.

وذات يوم، التقى بها. فتاة بعينين تحملان الضوء ذاته الذي رآه ليلة العيد. لم تكن تشبه أحدًا؛ كانت تشبه الجواب الذي ظل يبحث عنه بسؤال تلون بالحيرة. عشقها كما يعشق الحالم حلمه قبل أن يتحقق، وتشاركا في بناء حلمهما بضحكة، بكتاب، بليلة على سطحٍ مُضاء.

لكن الحياة لا تهدي الورد بلا شوك... واجها العزلة، الفقد، ونوباتٍ من شك الذات، حتى أصبح الحب بينهما امتحانًا، لا يُنجح فيه سوى من آمن تمامًا أن القمر لا يخون البشر.

وفي النهاية، كتب سامر روايته التي بدأت بدشداشة العيد وانتهت بنورٍ لا يُطفأ. في آخر الصفحات، كتب:.....

- كنت أحدق بالغد بعين الصقر، وها أنا الآن، أكتب عنه بعين القلب الذي لن يفتقد نبضه.

على ظهر الضوء

في تلك الليلة الطويلة، اختلط الكدر بجلودنا، كأنَّ البحر أراد أن يختم على أجسادنا توقيعه الأزلي. إحدى عشرة ساعة من المسير في البحر، كنا نتجول فيها بين أنصاف النوم وركلات المقاعد التي ضيّقت على أجسادنا الراحة وعلى أرواحنا التنفس، وبين نسمات بحرية تُرغم العيون على الاستيقاظ لحضور مشهد ساحر لا يتكرر فوق سطح الباخرة.

كانت الباخرة تمضي، والماء خلفها يرسم شريطاً من زبد البحر كضوء متجدد الطاقة، كما لو أن البحر نفسه يعيد رسم الحدود بين الواقع والحلم. وكانت السماء قد بدأت تبسط نجمها على الأفق. لم يكن الصمت سوى موسيقى خفيفة تعزفها أنفاس البحر، وعيوننا تتجول بين المجرات، نبحث عن حكايات الفلك في أفق متألق.

كل نجمة كانت وطنًا لنا، كل كوكبٍ كان صديقًا، وكل مجموعةٍ نجمية كانت أسطورة تنتظر أن تُروى. الزهرة استقبلتنا بابتسامتها، وعطارد كنقطة حمراء خجولة نائمة في الأفق، كما حيّانا من بعيد الدب القطبي الذي أضحى دليلنا لبيان الجهات الأربعة، وبنات نعش كأنهن يرقبن خطوتنا. سهيل أضاء الطريق، والجوزاء والعذراء والأسد والسرطان والثور كأنهم أدركوا وجودنا فاشتد البريق فيهم وهم يحرسون باخرتنا من العبث من أماكنهم.

في زاوية السطح، جلس "سالم" بجوار "هدى" يتأملان النجوم بصمت، ثم قال: سالم: ....

- هل تشعرين وكأننا نسبح فوق السماء لا البحر؟
- كأننا نُختبر. كل نجمة تتساءل في صمت: من هؤلاء التائهون على ظهر الضوء؟
- ربما نحن الحكاية التي سقطت من مجرّة ما، ونسيت أن تعود.
- أو ربما مجرّد عابري حلم، يُقاس نورهم بما يشتهيه الظلام من نجاة.

وفي لحظة ما، شعرتُ بأننا لسنا فوق البحر فقط، بل في أعماق أنفسنا متجهين إلى تلك المجرة، في رحلة تستنطق النجوم، وتمنح السماء وجهاً جديداً كل دقيقة. كانت الباخرة على ضخامتها، مجرد نقطة ضوء تكشف لنا فضل النجوم على البشر وهي تجري بين تلك النجوم في وسط شارع طويل وعريض يدعى درب التبانة.

طريق الجحيم

في مدينة لا تنام إلا على صوت الطلقات وتستيقظ على رائحة الدم والخيانة، سار "آدم" على الطريق الذي اختارته له الخطايا القديمة. كلّ خطوة كانت تقرّبه من حدود الجحيم، وكلّ ذكرى تحفر في ذاكرته ندبة وجع لا تُشفى. لكن، في زقاق منسيّ بين الرماد والخراب كانت تنتظر اللحظة هناك، عندما التقى بها "ليلى" وهي تتقد كشمعة في مهبّ القدر.

لم تكلمه، ما أن رآها اختفت من الواجهة بلحظة غفلة..

لم يكن الليل في تلك المدينة مظلمًا... بل كان يلمع ببقايا حريق أزلي لم ينطفئ منذ سنين. آدم يمشي بخطوات ثقيلة، عيونه عالقة في صور قديمة تتقافز على جدران الذاكرة. مد يده في جيبه، وجد فيه صورة ممزقة لطفلٍ يبتسم، وفي قلبه سؤال يحرقه:....

- هل يمكن أن نعبر قنطرة الخلاص المشبعة بالدماء؟؟؟؟

عند المنعطف الأخير وقبل الولوج في نفق الجسر، ظهرت أمامه ليلى مرة أخرى. لم تكن كما تأملها، بل كانت أقسى من الريح، وأصدق من الدعاء. قالت له دون أن تبتسم:....

- كلّنا سلكنا طريق الجحيم بطريقتنا... لكن القليل فقط من عادوا ليرووا القصّة لذويهم.
- ظننتُك وهما في طريقي.
- لا... أنا الحقيقة التي دائما ما تأتي متأخرة.

ثم استدارت واختفت كما ظهرت، تركته واقفًا أمام بوابة القرار الأخير وحده، والطريق ينأى بالغرابة والفجع.

جمراتُ البرد

داخل خيمةٍ يتخللها خوار الشخير ويختلط فيها البرد بالرائحة، تحوّلت ساعات الليل إلى زنزانة من صدى يُعيد تشكيل الروح بنفورٍ مقيت. حاولت أن أتسلل إلى حلمٍ وديع، لكن أصوات الأنين وقرقرة الأنفاس لعدد يزيد عن عشرين شخصا كانت كطلقاتٍ تصيبني في مَقتلي. ضممتُ جسدي في محاولةٍ الهروب من المكان، لكن عناكب البرد كانت شرسة، باتت تنهش أطرافي وتلاحق دفئي بشكل لا يصدق. جسدي بدأ يتحوّل تدريجيًا إلى جمرات خاملة، تحترق بصمت وتئن ببطء، إلى أن غلبني النعاس عنوةً... رأيت ذاتي تمشي وسط حقولٍ من الجمر، وكل خطوة تشعل أخرى، وكل جمرة تهمس باسمٍ فقدته لسبب ما. وعندما أفقت، خيّم الهدوء بشكلٍ غريب، كأن الليل نفسه قد أُصيب بالذهول. لا أعلم إن كان الصخب قد انتهى أو أنني أصبحت جزءًا من المجال كصيرورة، لكنني أدركت شيئًا واحدًا... أن في كل خيمةٍ، هناك دائمًا جمراتٌ للبرد، تحترق بصمت ودون صوت، وهي تُصغي بصبرٍ لا يملّ.

وفي نومٍ مفاجئ، عدتُ إلى الحلم... إلى الحقول المتّقدة، أمشي فوق الجمرات، أسمع من كل جمرٍ نداءً باسمٍ أعرفه، أحببته، أو فقدته. الأحلام تنقلب إلى محطات ذاكرة، والجمر يصير رسالة شجن من الماضي، كل خطوة تلتهب لتوقظ في داخلي لحظةً عشتها ورحلت. الحقول المتوهجة باتت دفترًا مفتوحًا، أدوّن فيه خساراتي بلغة الصمت الحارقة.

ثم عدنا إلى تلك اللحظة الموحشة... أنا والنار وبعضٌ من رفاق الطريق، نتحدث بصوتٍ يكاد لا يُسمع، نبحث عن قشّاتٍ للنجاة،

عن فكرةٍ قد تنقذنا من عتمة المجهول. بعض الكلمات كانت من نور، وبعضها من رماد، لكنها كلها حملت معنا طيفًا من الأمل، من ثقةٍ نحاول أن نخدع بها صقيع البرد.

وفي نهاية كل هذا، حين هدأ الشخير، وسكنت الرياح، بدا أن الليل نفسه قد دخل في صدمة. خيّم صمتٌ غريب، كأن الأشياء تراقبنا... أو كأننا نحن صرنا حكاية يُروى عنها. لم يعد الحريق داخلنا يحتاج إلى لهيب، لقد أصبحنا نحن الجمرات، نحترق بصبرٍ، وننير بهدوءٍ، وننتظر ما بعد هذا الليل الطويل.

النار والصقيع

وقفت معهم أشاركهم وأتسلى بتلك النار البائسة، وهي تحاول أن تزجر البرد بلطافتها، تتلوّى أمامنا في صراعٍ واضح مع الرطوبة والعجز. ما جمعناه من أعواد الحطب لم يكن كافيًا، كانت سيقانها ضعيفة ورطبة، لكنها حاولت أن تنصف أحوالنا بشيء من المقبولية. تبادلنا الأحاديث الهامسة حول مصيرنا، نحاول أن نستسقي الأفكار من بعضنا، ونغزل شيئًا من الأمل في هواءٍ لا يرحم. لم تكن النار مجرد دفء، بل تحولت إلى حوارٍ داخلي، رمادٌ يتكلم بلغةٍ لا يسمعها أحد غيرنا. تلك النار الهزيلة تشبهنا تمامًا، تقاوم بصمت، تشتعل بشيء من الأمل، وتذوب أمام نوبات الخوف من المستقبل والصقيع.

صارت الريح تجلدنا بلا رحمة، فيما النار تحاول ردّ الصفعات بالصفعات، كجلادٍ يحمي آخر ذرات الدفء. في تلك اللحظات، قفزت إلى ذهني لعبة "الجلاد والحرامي" التي كنا نلعبها في دربونة المحلة. كنا نحيط الحرامي في دائرة، يحميه جلادٌ وهو يحمل بيده حبلًا بطول مترين ونحن نحاول النيل من الحرامي... واليوم، النار هي الجلاد، نحتمي بها من طقسٍ شرس، نحاول التسلل إلى قلبها دون أن تُلسعنا أطرافها. الطقس يعاكسنا ويهيننا، وأنا أهرب إلى دفئها كطفلٍ يرجو حضن أمّه، أتنقل بين وهج النار وسخط الخيمة، دون مأوى يريحني. لم تغفُ عيناي. حاولت أن أتوسّد الحقيبة، فشعرت بها كالصخر تحت رأسي... لما فيها من حاجات غلظة تشبه غلظة الأيام. وحين رأفت بنا الشمس، هجست بها كأمٍ تعتذر، تمسح بوهجها ما تراكم علينا من الشقاء.

الكابوس

لا أحد يدري كيف بدأ الخبر في الانتشار. لم تكن هناك مقدّمات واضحة، لا إنذار مسبق، لا علامات تحذيرية، فقط همساتٌ تسرّبت بين الناس، تحوّلت إلى صخبٍ عاصف اجتاح الشوارع، حطّم سكينة الأسواق، ونثر الهلع في زوايا مدينة جلولاء كما لو كان نذير نهايةٍ وشيكة.

"هناك عدوٌّ يترصّد الجميع، كيانٌ مجهول هلامي الشكل عديم اللون، يتنقّل بلا أثر، لا يُرى، لا يُلمَس، يتأبط الهواء في تجواله، يندسّ في الأزقة، يبزغ كالضوء، يخترق الجدران، ينفلق كالرعد، يزلزل النفوس، يفتك بالأشياء، يتفشّى كالنار، يتحوّل من دارٍ إلى دارٍ، لا شيء يقف أمامه"!

لكن، لا أحد رأى هذا الكائن. لا أحد أدركه، لم يمسكه بيديه، لم يلتقطه بعينيه. كلّ ما هناك هو خوف مشاع.

الخوف الذي صار أكبر من الحقيقة، صار كائنًا بحدّ ذاته، ينمو، يتغلغل، يتفشّى بيننا، ونحن نركض وراءه كما لو كان ظلًّا، كما لو كان عدوًّا لا وجه له ولا اسم. قيل إنه أخطر من إنفلونزا الطيور، إنفلونزا الخنازير، وجنون البقر، والإيدز، والطاعون، والكوليرا، وكورونا، ومن سواها من أمراض تداهمنا كل بضع سنين. بدا الأمر وكأنه اختلاق مدروس لعدو وهمي يبث الرعب في النفوس لأهداف خفيّة.

في تلك الشوارع المزدحمة بالذعر، كنت أسير بلا هدفٍ واضح، أبحث عن يقينٍ وسط العاصفة. وجوه الناس كانت متجمّدة، محطّمة، كأنها فقدت القدرة على إدراك ما يجري.

العيون شاردة، الخطوات متعثّرة، والنساء يركضن نحو البيوت قبل أن يبتلعهنّ المجهول، وسط الجموع، لمحتُ أمي، واقفةً كأنما داهمها طيفٌ من الماضي، وملامحها تنطق برعبٍ لم يفارق ذاكرتها منذ الطاعون القديم. كانت تهرع كما لو أن الزمن يعيد نفسه، كما لو أن ذلك الوباء الذي فتَكَ بالناس في الحرب العالمية الأولى والثانية عاد ليأخذ بثأره.

حاولتُ تهدئتها، لكن الكلمات تلاشت في ضوضاء الفوضى المحيطة بنا.

حين رفعتُ الهاتف لأتطمأن على زوجتي، حدث شيء غريب. الخط اشتبك سمعت صوت رجلٍ أعرفه، أنه صوت سالم الدلال، الذي اشترى سيارتها منذ أيام. كأن القدر أراد أن يكشف لي أمرًا لم أكن مستعدًا لسماعه.

بدأ الحديث رسميًا، لكنه سرعان ما انزلق إلى شيءٍ آخر... كلماتٌ لم تكن عادية، كانت مغلّفة بغزلٍ مبطن، تخرج بجرأةٍ غير مبررة، كأنني أستمع إلى كابوسٍ يتشكّل أمامي بصوتٍ حيّ، كأنني وقعتُ في دوامةٍ من الهواجس التي لا تنتهي. حيث قال لها:.....

- تلك الشعيرات العالقة على مقعد السائق... لا أجرؤ على إزالتها، كأنها تذكّرني بأنك كنتِ هنا، أنفاسك لا تزال عالقة في المكان.

اشتد الغضب في صدري، كأن ريحًا سوداء اكتسحت كياني. في لحظةٍ واحدة، صار المرض المنتشر في المدينة بلا أهمية، لم يعد ذلك الوباء الغامض يستحق اهتمامي بقدر ما يستحقه هذا

الصـوت، هـذه الكلمـات، هـذا العبـث الـذي تسـلّل إلـى عـالمي دون إذن.

بحثــتُ عــن عمــي(أبــو زوجتــي) فــي المقــاهي الشــعبية، وجدتــه هنـاك، مسترخٍ بـلا اكتـراث، كأنّـه خـارج حـدود الـذعر العـام. سـألته عـن الخبـر وعـن زوجتـي، فاسـتهان بـالأمر، ثـم بـاغتني بمعلومـةٍ صاعقة: "زوجتك ليست هنا، لقد سافرت إلى البصرة".

وقفــتُ مشــدوهًا. هــل هــو حقيقــة أم جــزءٌ آخــر مــن هــذا الحلــم الغريـب الـذي لا ينتهـي؟ شـيءٌ مـا بـدا مخـتلًا، كـأن الأمـور كلهـا تُدفع إلى هاويةٍ لا قرار لها.

وبينمــا كنــا نحــاول العــودة إلــى المنــزل وســط الفوضــى، أُحِطنــا بمجموعـــةٍ مـــن الجنـــود يســـوقون فصـــيلا مـــن المســـتجدّين إلـــى المعسـكرات لغـرض ارسـالهم الـى جبهـة القتـال المشـتعلة. انجرفنـا بيــنهم بــلا قصــد، كأننــا أصــبحنا جــزءًا مــنهم دون إرادة لغــرض تجــاوز الزحمــة. عنــدما حاولنــا الانســحاب، تمســك بنــا العريــف المسـؤول عـن السـرية، كأنـه مسـمارٌ صـدئٌ التصـق بنـا، حاولـت ان انســحب دون جــدوى قلــت لــه لســنا جنودا...قــال سنســجل اســمائكم الان...، عنــدها صــرخت بــه قــائلا:.. نحــن فــي مهمــة خاصة ياغبي،

عندها توقع نحن من صنف المخابرات ففك قيده عنا .

فــي تلــك اللحظــة هجســت لــم نعــد أحــرارًا، عرفــت أننــي لــم أعــد أبحــث عــن مــرضٍ أو زوجــة أو حتــى حقيقــةٍ واضــحة، بــل كنــت أحـاول الإفـلات مـن دوامـةٍ تبتلعنـي، مـن حلـمٍ قـد يكـون كابوسًـا، أو كابوسٍ قد يكون حقيقة.

حين وصلنا أخيرًا إلى البيت، وجدناه مُحاطًا برجال الشرطة، وأطفال الجيران يتهامسون. بأنَّ زوجتي اعتُقلت. يُقال إن سالم الدلال مات قبل ساعة بسبب مغصٌ شديد مفاجئ، "الوباء تسلّل إليه عبر السيارة"...

وقفتُ مشدوهًا، عيناي تجوب المكان، أدركتُ أنني لم أعد أفهم شيئًا. هل أنا داخل حلمٍ مسعور؟ هل هذا العالم حقيقة أم مجرد لعبة عقلية تتردد إلى ذهني كل ليلة؟

بخطواتٍ مشدودة، اتجهتُ إلى المستشفى، حيث كانت زوجتي ترقد، شاحبة الوجه لكنها حيّة، ابتسمت حين رأتني، وحين لامستُ يدي، تناثر كل شيء من رأسي كذرات غبارٍ كانت عالقة في فضاء اللاوعي. في تلك اللحظة، تيقنت أنني استيقظت من غفوتي. كان كابوسا مخيفا.. لابد من الحذر، الكوابيس هي إشارة لسوء الأحوال.

أدركت أن ما حدث كان إنذارًا خفيًّا، كأن الله بعثه ليوقظني، يعيدني إلى جوهر العلاقة، إلى المودة، إلى السكن.

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا..." (الروم: 21)

منذ تلك اللحظة، أصبحتُ أكثر حرصًا، أكثر عاطفةً، أكثر امتنانًا. لقد علّمني الكابوس أن الحياة هشة... لكن الحب، حين يُصان، أقوى من كل الأوبئة

غشاء القارب

في ليلة أظل بها القمر طريقه، جلس خالد على الحافة المطاطية للقارب، يطالع البحر وكأنما يطالعه الموت ذاته. بجانبه طفلاه نائمان في حضن زوجته، يراوغهما القلق في يقظة دائمة. لم يكن خالد مجنونًا، لكنه كان يائسًا... واليأس هو أعقل المجانين.

كان البحر واسعًا، أوسع من كل الحكايات التي سمعها وهو صغير، أعمق من صمت الرجال، وأشد قسوة من عيون الحراس. ورغم طمأنينة القارب في أول المشوار، سرعان ما بدأ الغشاء يهمس له بكلمات مرعبة، كما لو أنه لا يريد أن يكون المنقذ هذه المرة، بل مجرد شاهد على العناء والغرق.

تداخلت أصوات الريح الموج مع بكاء طفلة في طرف القارب، ليصبح الليل ساحة صراخ ومعركة بين النجاة والموت المتربص كلص خلف الهواجس المتعبة، وتحت كل هبّة ريح. شعر خالد بأن البحر قد فهم نواياهم، لم يعد خصمًا طبيعياً، بل كأنه اختبر مئات القوارب مثلهم، وأدرك أين ينفث سمه فيهم.

ومع كل موجة، كانت تتعالى صيحات الأمومة، وتهتز أعمدة الصبر. أحد الركاب، وقد خانه الخوف، وقف وهو يصرخ كأن الشيطان تمثل في نبرة صوته. لكن خالد، الذي حمل أطفاله في قلبه قبل يديه، ظل ممسكًا بحبل القارب كمن يمسك بخيط أمل يوشك أن ينقطع.

ثم حل ذلك الصمت الذي يأتي بعد الصراخ، والذي يكون أكثر ضجيجًا منه. لا موج ولا حركة، فقط ظلام البحر وهمسات الشك. عندها فهم خالد أن القارب لم يكن عدوهم، بل كان مرآةً

ضعفهم، وانعكاسًا لكل رعونة ومخاوف خبأوها الزمن في الداخل.

ولأول مرة، لم يُرد أن ينجو... بل أن يفهم. أن يفهم لماذا خذلهم القارب، ولماذا بدا الموت ينحدر اليهم كصوت مَن تحبه وهو يهمس لك وداعًا.

وفي قلب هذا الصراع، عرف خالد أن العبور لم يكن عبور بحر فقط، بل عبور من الهزيمة إلى الخذلان، لكن الرجاء ضاع بين الخوف والإيمان، كان غشاء القارب هو الثمن.

رماد اللافندر

في زاوية الكافتيريا، كانت تجلس على كرسي أبيض كأنها نُصبت بوعي، كمنحوتة جمالية لا تخطئها العين. بشرتها، المملّحة بالسمرة والمشعة بلون الصيف الصحراوي، تخفي خلفها سلطانًا لا يُقاوم. شفتاها، المطلية بحمرة عنّابية كأنها مستخلصة من دفء اللافندر، تتوهّج كجذوةٍ مشظة في بساط وجهها الغني بالجاذبية.

يركب ملامح وجهها أنف شامخ، لطيف، كشراع يطفو برشاقة فوق أمواج الوجه، يضفي ظلاله على المعالم الأخرى بأناقة. عيناها تترصدان المشهد من زاوية واحةٍ زرقاء، يتساقط من حدقتيهما شواظٌ يلهب جليد أسيل الخدود، فتغشى وجنتيها بالخجل، فتزيد بهاءً وجموحا كوردة جلنارٍ تقدح تحت ضوء الشمس.

كلّ من يمرّ بها يشعر وكأن شيئًا خفيًّا يقمعه بالتيه، رافد من أعماق الظن والتأمل. كانوا متجمعين زبائن في ظاهرهم، لكنهم مرهفون من الداخل، مراهقون في غواياهم، تلتهب حدقاتهم بتلك النار ولا يملكون أمامها إلا أن يركنوا إلى صمتٍ خجول، وجنونٍ داخليٍّ مسكونٍ بالفتنة لا يستطيعون تجاوزه.

لكن أكثرهم صمتًا كان ذاك القلب الشاحب الذي جلس في أقرب طاولة. لم يكن يتأملها فقط، بل كان يعيش عشقها، كأنها فكرةٌ تسللت إلى وسادته وسهده وسمره، وباتت منجاةً لا يستطيع أن يتخلى عنها. في كل مرةٍ ينظر إليها، يشعر أن المساء ينزل من حدقتها، وأن الرمل يسكن رهافة صدرها ويقح الحنين في

صوتها، وأن اللافندر ليس مجرد عطر، بل نبوءة تغشيه بالصمت.

اقترب منها أخيرًا، مترددًا كمن يخطو على أطراف حلم، قال بصوتٍ خافت:

- المساء يهبط من عينيكِ، كأنني أراه لأول مرة بهذا الجمال. ترى هل يتدفق من ضوء النجوم أم أنكِ تسكبين فيه الضوء؟

ابتسمت بخفة، كأنها ترد على سؤالٍ تعرفه مسبقًا:

- ربما أنا ظلٌّ عطرٍ قديم، وأن رماد اللافندرِ بقي منه شيء لم يحترق.

تأملها بدهشة، ثم همس:

- رمادكِ أوقظ فيّ شيئًا كنت أظنه مات منذ زمن..

حين تكلم الصمت

تسلل ضوء الصباح من زجاج القاعة العليا، لا ليُضيء المكان فحسب، بل ليكشف وجوهًا شاحبة، مشدوهة، وكأنها تنتظر الحقيقة تُشنق على حبل الشك. كان الزمن قد تجمد في تلك القاعة الحجرية منذ أن استدعى سُهيل لها ليقاضى، لغل مدسوس في أوراق القضية. حيث يقف سُهيل مخذولا في قفص الاتهام، لا كمن استسلم عن ضعف، بل عن قناعة بأن الصمت أحيانًا أبلغ من آلاف المرافعات. من حوله تدور في فلك الرعب كل من - عيون القاضي، والشهود، والمُدّعين، تتأرجح بين الأوراق وما يقبع خلف الأقنعة من هواجس وأفكار. بينما يسود همسٌ بين الحضور يتعمّد إسكات صوت الحقيقة. لم يكن وحيدًا، رغم أن صمته بدا صارخًا أكثر من أيّ احتجاج، كان برفقة يقين لابد في قلبه كنبضه.

كان يعرف أنه يواجه قضية كيدية محبوكة، حاكها خصومه بإتقان. لم يكن فيها إلا رائحة قبح وغيرة ليس إلا، وسهام الخوف من صوتٍ اعتاد قول الحق. كان يثق تمامًا ببراءته لكنه يفتقد الدليل. ما كان يقلقه حقًّا هو أن العدالة في نطقها تتلعثم بالحقائق، وكأنها تستجدي من يصونها باليقين بسبب الغل المبثوث في التقرير المعد ضد سهيل.

في الزاوية الخلفية من القاعة، كانت رُبى، الصحفية الشابة، تقبض على دفترها بإحكام، تدون الهمسات والنظرات والحوارات الدائرة. تابعت القضية منذ بدايتها. ومن خلال المشاهد التي حضرتها كانت متأكدة أن سُهيل يُحاكم لأنه صدح صوته عاليا حين صمت الآخرون. شعرت أن معركته ليست

مـع المحكمــة ولا هــي شخصــية قــط، بـل مـع مجتمـعٍ متــأزم يُكـرم السكوت ويخشى الصدق.

تــدور الكــاميرا – كمــا لــو كــان فيلمًــا- لتلــتقط نظــرة مــن الخصــم، شـخصٌ لا يُفصـح عـن الكثيـر، يكتفـي بابتسـامة صـفراء كلمـا التقـت عينـاه بعينــي سُـهيل. كانـت رائحـة القلـق تتصـاعد أكثـر مـن عطـر أيّ حاضـر، والمشــهد كلــه يبــدو كمســرحية أُعــدّت بعنايــة... فقـط بانتظار من يسدل الستار.

ومــع تــوالي الأيــام، وبــين جلســة وأخــرى بــدأت تتفتــت عقــدة القضــية، بـدأت الشـكوك تتسـلل إلـى جسـد التهمـة وإلـى مـن ظنـوا أن القضــية محســومة ولا مجــال بالتمــادي خلــف أمــل يخفــق فــي الظــلام. غيـر أن دفـاع سُـهيل كـان يجـري عكـس اتجـاه المشـككين، قــرأ المشــهد مــن جوانــب لــم تطــرق، تمكــن مــن خلالهــا مــن أن يُضـيء زوايا الحجج بالأدلة والشهادات التي رفضت الركوع.

اسـتمرت المماطلــة حتــى اليــوم الأخيــر، عنــدها كــان القاضــي قــد وصـل خـط النهايـة قبـل أن يصـل الجميـع، قـرا المشـاهد بـتمعن، ممــا أجبــر علــى صـيانة الجـرة دون ضــرر. وفـي لحظـة صـمت أعلــن بــراءة ســهيل، كقنبلــة فجرهــا بــين واقــع الحضــور.... مــع إعـلان البـراءة عـمّ القاعـة صـمتا لـم تعرفـه مـن قبـل، كـأنَّ الجميـع كــان ينتظــر لحظــة غيــر التــي فلتــت عــن لســان القاضــي، لكنهــا جــاءت بمــا لا تشــتهي السـفن، انهــا لحظــة الحســم بعــد أن أخــذت القضــية وقتــا أطــول مــن الــلازم. فــي تلــك اللحظــة تــنفس ســهيل الصـعداء، لكنــه لـم يبتسـم لوقـع المفاجـأة، بـل أغلـق عينيـه الدامعـة شاكرا قلبه الحليم الذي لم يخنه.

في المساء، عادت رُبى إلى مكتبها، لتنشر واقع القضية في الجريدة الرسمية تحت عنوانًا عريضًا لمقالها وبخط النسخ: "حين تكلّم الصمت."

في الظلّ الغربة

البنيان بات يميل نحو الصدع، هناك شيء يتآكل بهدوء. كما هو المرض حين ينهش الجسد من الداخل. مع الايام تكون الحتمية أكيدة، عندها لا ينفع الندم. لم تكن الهجرة مجرّد عبور حدود، بل عبورًا صامتًا نحو عوالم لها ألف وجه ووجه. هناك حيث تعبس الوجوه المبتسمة خلف أقنعة المفاهيم الجديدة المطلية بصبغة الحرية والمساواة الكذابة .

شعرت "ليلى" بأن شيئًا ما يتسلل إلى داخلها كلسعة الألم، وشيء من الجنون يهز بدنها، يتسلل لدفء بيتها من مثالب لا تراها بالعين ولكن تتحسسها من المحيط... شيء من الغموض، لا يُسمع ولا يقرأ، لكنه يكون حاضرا في الكلمات العابرة وفي السلوك والتصرف والعبث يشاكسها، تراه في صور العري والبوسترات وفي الأوراق التي تعلّق في الشوارع والملصقة على جدران المدارس، وفي نصائح الصليب الاحمر والمربّية بلطفٍ مريب.

كانت "ليلى" تراقب زوجها "سليم" وهو يحاول أن يُبقي أركان الأسرة سليمة، قائمة، وسط زوابع غير مرئية تحيط بهم، لكنها تأثرت بالريح المارقة. مع أنها كانت تقرأ المشاهد من على بعد؛ لكنها مع مرور الوقت تغير شيء من حديثها مع سليم بات الحوار متشنجًا، خانقا، يدور بين "الحق والواجب" من وجهة نظرها، بين "أنا ونحن". صيغة جديدة لم تكن تعرفها قبل الهجرة، ولم تكن تعرف من أين جاء ذلك الخلل. لكنها كانت تشعر أن أشياء كثيرة تغيرت فيها واشياء تُزرع في طرق الحياة دون أن تُستأذن سيكون لها تأثير في المستقبل.

فـي لقـاءات الجيـران، فـي مواعيـد الرعايـة، كـان الصـوت واحـدًا، محفـزا لهـا، "كـوني قويـة، لا تسـمحي لزوجـك أن يمـسّ كرامتـك واسـتقلالك أنـت سـيدة نفسـك والقـرار، أنـت حـرة.... لكـن ليلـى لـم تكـن ضـعيفة، كانـت فقـط تـؤمن أن التماسـك لا ينـاقض الحريـة، وأن المســاواة كذبـــة أختلقهـــا أصـــحاب النظريـــات العقيمـــة لا تستدعي الصدام.

وبينمـا كـان سـليم يسـهر علـى دروس الأبنـاء، ويسـرد لهـم قصـص الجـدّ فـي أرض الـوطن، كـان فـي داخلـه يكمـن خوفـا ملغومـا لا يسـتطيع البـوح بـه، جنـون لا يسـتطيع البـوح بـه، وغصـة تكبـر مـع الايـام، كيـف ممكـن أن يُربّـى الجيـل القـادم علـى الحـذر مـن الوالـدين بـدل مـن غـرس الثقـة المفروضـة، يبنـى علـى التفكـك الاسـري باسـم التنـوير بـدلا مـن الحفـاظ علـى عمـاد الاسـرة. عنـدها علم:...

أن الغربـة لا تُضـعف الجـذور فحسـب... إنمـا تـذم مـن تمسّـك بـالقيم والمبـادئ وتمـدح مـن تخلـى عنهـا. عنـدها قـرر العـودة للـوطن للحفـاظ علـى الأسـرة والقـيم والـدين وخاصـة بناتـه ورود باتـت تزهر.

ظلّ النغمة الضائعة

في مدينةٍ لا تُسمع فيها الأصوات، كانت الجدران صامتة، والقلوب أكثر صمتًا. وُلد ناي، طفلٌ لا يعرف كيف يتكلم، لكن قلبه ينبض بنغمة لا يسمعها أحدا سواه .

في أحد الأيام، وجد مرآةً قديمة في علّية منزله، لكنها لا تعكس صورته، بل تعكس أصداءً من زمنٍ غابر. سمع فيها صوتًا يتردد إلى ذهنه يقول: ....

- النغمة التي تبحث عنها ليست لك وحدك، بل هي صدى حلمٍ حزين نسيه العالم.

قرر ناي أن يتبع ترددات الصوت، سافر عبر صحراء الصمت، حيث لا يُسمع إلا خفقان قلبه. هناك، تعلّم أن كل صمت يحمل موسيقى خفية، وأن الريح تعزف على الرمال والجبال والشجر لحنًا لا يُكتب.

وفي النهاية، وقف على قمة جبلٍ من الذكريات، وعزف النغمة التي كانت تسكنه. فاهتزت المدينة، وعادت الأصوات إلى عالمها، وعُرف ناي بأنه لم يكن سوى ظلّ النغمة الضائعة التي أعادت الحياة إلى طبيعتها.

شمعة لا تنطفئ

في قريةٍ لا تُشرق فيها الشمس، وُلدت وهج، فتاةٌ تحمل في يدها شمعة لا تنطفئ. خاف منها الناس، وقالوا إنها مجنونة وأنها لعنة وأنها من الجن...الخ من تشبيهات جعلوها تختفي خلف ظل نفسها، لكن وهج كانت تعرف أن النور لا يخيف إلا من اعتاد الظلام.

كلما اقتربت من شخصٍ حزين، خفّ ضوء الشمعة، وكأنها تمتص حزنه وتخفف أرقه. بدأت رحلتها، تضيء قلوبًا الناس المنسية، وتهمس لهم:....

- النور لا يكتسب، بل يورث.

ومع كل قلبٍ يُشفى، كانت الشمعة تضعف. حتى جاء اليوم الذي انطفأت فيه تمامًا وهجها... عندها عمّ الظلام لفترة. بدأت الناس تبحث عن وهج بين العتمة دون أن تجدها.... لكن فجأة، أشرقت الشمس لأول مرة في القرية عندها ساد الدف والنور.

حينها فهم الجميع أن وهج لم تكن لعنة، بل كانت قدر ينتظره الجميع. ومنذ ذلك اليوم صار الاطفال يحتفلون سنويا بذكرى وهج في 21/ آذار... لأن النور لا يموت، بل يُورث.

بين الرمل والنار

فـي قلـب صـحراء العـراق، حيـث تـذوب الشـمس فـي الأفـق كجمـرة ملتهبـة، عـاش فتـى يُـدعى "ريـان". ورث عـن والـده خريطـة قديمـة محفـورة علـى جلـد غـزال، يقـال إنهـا تقـود إلـى كنـز مـدفون منـذ عهـد البـابليين. ولكـن لا أحـد عـرف مـن قبـل أن هـذا الكنـز محـروس بسـلالة غريبـة مـن الكائنـات التـي لا تَظهـر إلا عنـدما يكتمل خسوف القمر.

فـي إحـدى ليـالي الصـيف، التقـى ريـان صـدفةً بفتـاة تُـدعى لـيلان، كانـت تملـك قـدرة نـادرة علـى قـراءة الآثـار ورمـوز لا تُـرى إلا بالنـار. وبعـد أن اجتمعـت خيـوط القـدر، قـررا سـويًا الانطـلاق فـي مغـامرة غريبـة فـي رحلـة تركبهـا العجـب، حيـث سـيواجهان أسـرارًا طُمسـت عمـدًا منـذ زمـن بعيـد، وأعـداءً يعرفـون كيـف يخدعون سلطان الزمن.

لكـن هـل الكنـز هـو مـا يبحثـان عنـه فعـلًا؟ أم أن الحقيقـة أعمـق ممـا تسمح به الخرائط؟

عنـد وصـولهما إلـى واحـة مهجـورة قـرب جبـل سـنجار، ظهـرت لهما نقوش على جدران كهف حجري تحمل تحذيرًا قديمًا:...

- من سعى خلف السر، تاه في ظلاله.

وبينمـا كانـت لـيلان تُشـعل النـار لقـراءة الرمـوز الخفيـة، خـرج مـن داخـل الكهـف طيـف لجنـدي بـابلي يرتـدي درعًـا مـن نحـاس مرسـوم عليه نجوم من اسرار السماء. قال بصوتٍ خافتٍ:...

- الكنز ليس لكم... بل لمن يتذكر الحقيقة.

بـــدأت الرمـــال تتحـــرك تحـــت أقـــدامهما، وكـــأن الأرض تـــرفض دخولهمـا الكهـف. وفجـأةً، ظهـر جهـاز غريـب بـين جـدران الكهـف بعـد ان أزحـــت لـــيلان الغبـــرة مـــن فوقـــه..... جهـــاز يشـــبه ســـاعة شمسـية، لكنـه يُصـدر نبضـات خفيفـة كلمـا اقتربـت لـيلان منـه. بـدا أن الجهــاز هــو المفتــاح الــذي يحــدد موعــد ظهــور "الحــارس النهائي" الذي يحرس الحقيقة، وليس الكنز.

وبينمـا الليـل يسـدل سـتاره، ارتفعـت مـن بعيـد أنغـام أشـبه بالتراتيـل القديمــة الحزينــة، تُرددهــا أرواح تــرددت علــى المكــان منــذ زمــن، وكأنها ترحب بمن جاء ليكتشف ما يجب أن يُنسى.

ركن القمامة

في الشرفة العالية، يجلس "أحمد" كل مساء، حاملاً دفترًا وقلماً، يراقب الشارع الذي لا يهدأ. لم يكن ما يراه ممتعًا، لكنه كان واقعا حقيقيًا. على بعد خطوات من ملهى ضيق الأبواب تقابل الشرفة، كان معتوهان يحومان حول حاويتي قمامة كأنهما ينتظران وجبة مقدسة، كما ينتظر المؤمنون نورًا من السماء.

الأول كان ضخم الجثة ذو لحية حمراء كثة كأنها شعلة غضب، جسده متين وعيناه يبرقان بحذرٍ ذئبيّ. الثاني كان نحيفا جدا متوسط الطول، أضعف من أن يحمل كيسًا فارغًا لانكماش جسده من الجوع، لكنه كان نشطا، يتحرك بخفة تشبه الطقس المتقلب خلال الربيع والخريف، لا يُفهم ولا يُتوقع.

كانت طقوسهما تبدأ قبيل الغروب بفتح الأكياس، ثم نثر الفضلات في الشارع، نكش كل ما يمكن أن يكشف عن أثر حياة بشرية مرّت من هناك؛ حتى تغط المنطقة بالنتن والقاذورات. كأنهم في صراع مع عمال النظافة الذين يندمجون في لعبة عبثية مع هؤلاء المساكين، حيث يأتون صباحًا لتنظيف ما سيعود بذات القذارة مساء.

أحمد المراقب الذي يبدو مبهوتا مما يحصل، بقي صامتا وهو يتساءل: يا ترى من المعتوه هنا حقًا؟ هؤلاء الذين ينبشون القمامة، أم أولئك الذين يلقونها في الحاويات، أم المنظفون الذين يتبارون معهم، أم هو نفسه الذي يراقب بصمت ويسجل الملاحظات دون أن يتغير المشهد يوما؟

فتاة الكافتيرية

مضـت عشـر سـنوات كأنهـا شـتاءٌ طويـل، لكنهـا لـم تسـتطع أن تُطفـئ وهـج تلـك اللحظـة التـي دخـل فيهـا الكافتيريـا حـين رآهـا. كانـت تقـف خلـف المنضـدة، تلـك السـمراء الفاتنـة، تلمـع بشـرتها كأنهـا نُحتـت مـن شـمسٍ ناعسـة ومـن ملـح البحـر. شـعرها منسـدل فـي موجـات سـوداء تعكـس ضـوء الغـروب، وعيناهـا... كأنهمـا ليـلٌ هادئ يتّسع لكل الأسرار.

لـم تكـن تُشـبه الأخريـات، لا فـي ملامحهـا ولا فـي حضـورها. كانـت تمشـي بخفـة وهـي تنثـر الأنوثـة فـي عـين متتبعيهـا، هـي تعـرف تمامًـا أن العـالم ينتبـه عليهـا حـين تتحـرّك، وتبتسـم كمـن يملـك سِرًا لا يكشـفه إلا لمـن يرتقـي بهـا. نبـرة صـوتها مـن أصـوات الطيـور، يطـابق لحنـا يُعزفـه كمـان فـوق شـاطئ البحـر ليصـل أبعـد نقطة عبر الامواج المسافرة.

فـي تلـك الليلـة، رآهـا خـارج المبنـى، تلـف جسـدها بمعطـف خفيـف وتتحـدّث بهمـس علـى هـاتف صـغير، كأنهـا مشـغولة بشـخص غريـب، حـين لمحـت عينيـه ابتسـامتها، لـم تكـن تلـك الابتسـامة عـابرة، بـل تخفـي فـي طياتهـا زمنـا قـديما، وحبـا مواربـا نـام طـويلا بين الذاكرة والاحتمال.

والآن، بعـد عشـر سـنوات، لا يـزال يـرى ظلّهـا يحـوم فـي المكـان يتوشـح برائحـة البحـر، أو حـين يسـمع صـوت آلـة قهـوة تتـنفّس البخـار. ربمـا اختفـت مـن المكـان، لكنهـا لـم تختـف مـن الـذاكرة. لـم تكـن مجـرد امـرأة؛ هـي اللحظـة التـي تنقسـم فيهـا الحيـاة إلـى مـا قبلها وما بعدها

عهدُ الغروب

في إحدى الأمسيات وعلى ذات المرفأ، جلس طفلٌ صغيرٌ إلى جوار أبيه يتأملان الغروب بصمتٍ لا يُكسره سوى صوت الموج حين يغسل الشاطئ. ظل الطفل يتابع الشمس وهي تنحدر ببطء نحو البحر ثم همس:...

- بابا... هل الشمس تُحبّ البحر؟

ضحك الأب بحنان، ثم نظر نحو الأفق وقال:....

- بل تعشقه، يا صغيري. أنظر لها كيف تقبل ثغر البحر! كل يوم تعود إليه بعد عمل شاق تبذله لإحياء الطبيعة، لتقول له:- أنا هنا... والبحر ينتظرها بصبر كمن لا يعرف اليأس.

وبينما الكلمات تنساب، هبط نورس صغيرٌ من السماء، استقرّ على حافة القارب القريب. بدأ يُغرّد بلحنٍ جميل، وكأنّه يسرد حكاية ذلك العشق السرمدي لكل من لم ينتبه عليه.

نظرت الشمس نحو الطائر، فأومض شعاعٌ منها كالابتسامة، وردّ الطائر بنغمةٍ أكثر دفئًا، كأنّه قال لها:....

أعرف عشقكِما وأحمله في جناحيّ كل صباح وغروب. أُغني لكِ في المدن، في الريف، وحتى حين لا يراكِ أحد... أروي قصتكِ لمن نسي أن الحب لا يغيب.

هنا أغمض الطفل عينيه، وقال بخفوت:..

- أريد أن أكون مثل البحر... أظلّ أُحبّ وأنتظر، حتى لو غابت الشمس.

ابتسم الأب، وطبع قبلة على جبينه قائلاً:...

- حين تفهم معنى الانتظار، تبدأ أولى خطوات الحب.

وفي تلك اللحظة، اختلط صوت الطائر بأمواج البحر وضوء الغروب، ليُخلّد عهدًا جديدًا في سجلات الوفاء وهو يسرد قصة عشق الشمس للبحر الأزلية.

نبوءة الرماد

بعد أن لمح الرموز على جدار الكافتيريا، عاد صفاء مرّاتٍ عدة محاولًا كشف سر إسراء. لكنها في كل مرة كانت تتعامل معه وكأنها لا تعرفه، وكأن شيئًا ما يُعيد ترتيب ذاكرتها كل صباح. وذات يوم، بينما كان يتبعها في السوق، اختفت فجأة خلف ستارة تُباع بين التحف القديمة. دخل خلفها... فوجد نفسه في عالم آخر.

كان المكان نسخة قديمة من تاريخ بغداد، يعود إلى أكثر من 3000 سنة. صخب المدينة يشبه الحلم، ووجوه الناس تبدو مألوفة لكنها من زمن آخر. هناك، لمح إسراء بثوبٍ ملكي وهي تتحدث إلى جمع من الكهنة. أحدهم اقترب منه قائلًا:....

- أنتَ المفتاح، لكنك تبحث عن الباب الخطأ.

وبينما يحاول فهم هذا الزمن الموازي، بدأت جدران المدينة في الانهيار كأنها رسمةٌ تتفكك مع كل لحظة يقظة... ثم استفاق صفاء في الكافتيريا، والكل ينظر إليه.

- هل أنت بخير؟

سألته إسراء، لكن هذه المرة في عينيها لمعةٌ تختلف. شيء ما تغيّر... أو عاد لمكانه.

مع آخر نظرة من عيني إسراء، شعر صفاء بشيء يتخلل جسده... ومضةٌ من معرفةٍ لا تعود له، كأنها لغزٌ حلّ نفسه دون أن يطلب أحدٌ ذلك. وفي اللحظة نفسها، توقفت أصوات

الزبائن، تجمّدت الحركة، وصار المكان وكأنه لوحة بانوراما جامدة معلّقة بين لحظتين.

على الطاولة، ظهر الكتاب الذي كان مفقودًا منذ بداية الرحلة- نبوءة الرماد. فتحه صفاء فوجد صفحة كتبت بنبض قلبه:...

- لكي تنكشف الحقيقة، يجب أن تموت الكذبة التي تعيش داخلك.

في هذه اللحظة، تغير كل شيء. أصبح صفاء يرى وجه إسراء الحقيقي- كائنٌ لا ينتمي لعصرٍ أو مكان، بل روح حارسة للبوابات العوالم. وقالت له:

- لقد عبرت الاختبار، يا صفاء. أنت الآن راوي الحقيقة.

اختفى الكافتيريا... واختفى الزمن. وأصبح صفاء يرى كل القصص التي رُويت، والتي لم تُروَ بعد، تمشي أمامه كأطيافٍ تنتظر من يكتبها.

هكذا، لم يكن الكنز ذهبًا، ولا كانت الخريطة مجرد دليل. بل كانت الرحلة ذاتها ما صنعت من صفاء كباحثٍ عن السر إلى حاملٍ له.

حجر القمر

في زمانٍ بعيد، قبل أن تُشعل الكهرباء مصابيح الليل، عاشت قبيلة تُعرف باسم بني السُهاد، وكانوا يقطنون سفح جبل يُقال إن قمته تلامس نجمة منسية. كل ليلة، كانوا يجتمعون حول نارٍ تتحدث بلهيبها، يشربون الشاي ويستمعون لأكبرهم، الشيخ ظاهر، صاحب اللغز القديم.

في إحدى الليالي قال الشيخ:.....

- من وجد الحجر، لا يحتاج إلى ذهبٍ ولا ملكٍ، لكن لا يحتفظ به إلا من عرف سره...

تطلع الجميع إليه بذهول، فسكت وأشار إلى قِصته...

حُسام، فتى من القبيلة، شغوفٌ بالحكايات، قرر أن يبحث عن حجر القمر الذي تحدث عنه الشيخ. حمل معه تمرًا وماءً، ومضى باتجاه الجبل. في طريقه، قابل عجوزًا تزرع الريحان في أرضٍ قاحلة.

قالت له:.....

- إن أردت الحجر، فأجبني: ما الشيء الذي إن قسمته، ازداد؟

فكر حُسام، تذكر كلام الشيخ، ثم ابتسم وقال: السر... كلما تشاركه توسع.

هزّت العجوز رأسها وناولته مفتاحًا من خشب الزيتون. قالت:...

- هذا يفتح بابًا لا يُرى، في كهف النسيان.

دخل حُسام الكهف، وكل خطوة كانت تُنسِيه جزءًا من رحلته. وصل إلى غرفة فيها مرآة، لكن صورته لم تكن تظهر فيها، بل ظهر صبي صغير، يشبهه لكنه يضحك دون خوف.

سمع صوتًا يقول:....

- الحجر ليس شيء يحمل، بل حالة تُفهم وتفسر. انظر جيدًا، من تكون دون خوفك؟

حينها، أدرك حُسام أن الحجر ليس ماديًا. هو أن تُفهم نفسك دون أن تهرب منها. حين خرج من الكهف، وجد حجرًا صغيرًا أمامه، بشكل القمر.

أخذه وعاد للقبيلة، وأعاده للشيخ ظاهر. قال له الشيخ:...

- لقد حملته، فهنيئًا لك الحكمة. الآن، حان وقت أن تروي القصة في جلساتك، لتعيش بين من سيسمعونك.

غارة على مكتب السفر

أصــفر وجــه الموظفــة، وتجمــدت ملامحهــا فــي صــمت مــذهول، حــين اقــتحم ســلام وشــلته المكتــب بعــرض مســرحي مباغــت. بــدا المشــهد كأنــه خــرج مــن شاشــة ســينما: كــاميرات تلفزيونيــة، أجهــزة بــث، أضــواء نيــون تســلط الضــوء علــى الوجــوه، رجــال متعــددون يــؤدون أدوارًا دقيقــة- صــحفي يســجل، تقنــي يضــبط جهــازًا، وآخــر يرفع عمود الإنارة فوق رؤوس الموظفات.

تجولــت العدســة بــين الموظفــات، تلــتقط تــوترًا مرســومًا علــى الوجــوه، شــلة ترتــدي قمصــانًا شــفافة تشــير لانتمــائهن لمنظمــات دوليــة، مــن الأمــم المتحــدة إلــى الصــليب الأحمــر. إحــدى الفتيــات أمسكت بسجل كبيـر، وأخـرى ترتـدي قميصـًا عليـه شـعار الإغاثـة، وكأن كل شيء انكشف في لحظة.

فــي زاويــة مكتــب الســفر، وبــين جــدران مغطــاة بملصــقات الــرحلات الحالمــة، وقــف المــدير مــذهولاً، يتوســل بســلام أن يوقــف التصــوير والتســجيل. بــدا كمــن انهــار تحــت وطــأة الحقيقــة، مســتعداً لتنفيــذ أي طلــب مقابــل إنهــاء المشــهد الــذي فضــح ارتباكــه. أُطفئــت الإضــاءة، وأُغلقت الكاميرا، وتوقف التسجيل. قال له سلام بهدوء

ادّعــى ســلام أنــه يمثــل منظمــات إنســانية عــدة، ويعمــل مراســلًا لقنــاة فضــائية تابعــة للأمــم المتحــدة. مهمتــه، كمــا قــال، كشــف الحقــائق ونقـل معانـاة اللاجئـين للعـالم. تقـدم بثبـات نحـو المـدير، الـذي توسـم فيــه ســمات الصــحفي فــي قيافتــه ونبــرة صــوته، قبــل أن يرميــه بعبارات حادة:....

- أمامك 24 ساعة فقط! إمّا تُحلّ مشكلة المهاجرين بالحسنى، وإما يُغلق هذا المكتب إلى الأبد. كيف تتلاعبون بأناس هاربين من جحيم الحرب؟ تعطونهم تذاكر طيران بقيمة 900 يورو وهم لا يملكون جوازات سفر، وتمنحونهم تذاكر بهويات سورية وهم عراقيون الأصل، مستغلين جهلهم للغة اليونانية؟ سنبث كل هذا مباشرة، أو تتحركون فورًا لحل هذه المأساة".

تلعثم المدير، فيما ظل سلام يطلق رصاصاته الكلامية بلا هوادة. لم يدعه يلتقط أنفاسه، حتى أضحى أمامه كسدادة رمي تتلقف الضربات، وهو واقفًا كأسد ضرغام يود افتراس ثعلب ماكر تفاجأ بدخول الأسد لوكره.

فند سلام الأخطاء واحدة تلو الأخرى:

- المكتب قطع لهم تذاكر دون التأكد من وجود جوازات سفر.
اللاجئون لا يعرفون اللغة، فكيف يتحملون خسارة 900 يورو هربوا بها من بلدانهم؟إما أن يتحمل المكتب مسؤولية غلطة الموظفة، أو نرسل تقريرنا التلفزيوني حالًا".

ارتعب المدير، وتوسل بسلام أن يوقف التصوير والتسجيل، مستعدًا لتنفيذ كل مطالبه. أُطفئت الإضاءة، وأُغلقت الكاميرا، وقال له سلام:

- حول تذاكرهم من الطيران إلى الباخرة، وأعد الفروقات إليهم.

رد المدير مترددًا...:

- يمكننا منحهم تذاكر باخرة على حساب المكتب، لكن الفروقات سُجلت في النظام، ولا يمكن التلاعب بها. سنخسرها من جيوبنا.

وافق سلام على العرض بعد أن أخذ رأيي، لكن المدير أضاف أن الباخرة ممتلئة تمامًا، ولا غرف شاغرة إلا على سطحها. أومأت بالموافقة، وقلت له إنها ليلة يمكن تحمل مشقتها بدل الانتظار لأربعة أيام أخرى.

أمر المدير الموظفة بإصدار التذاكر، واستلمها سلام كاملة. خرجنا من المكتب منتصرين، وجوهنا مفعمة بالنشوة، والفتيات يبتسمن، والشباب مبتهجون. أما سلام، فغص وجهه بنشوة عذبة، ظهرت في عينيه، ثم رفع يده عاليًا، ممسكًا بالتذاكر، وصاح بصوت جهوري:...

"Yes!"

كنا كمن عبر جبهة حرب، وخرج منها بظفر مبين. لم تكن مجرد تذاكر، بل كانت شهادة انتصار، ووسام فخر لقائد عرف كيف يدير الأزمة، ويخرجنا منها مرفوعي الراس.

ظلُّ القمر

في قرية صغيرة تحيط بها الجبال، عاش صبي يُدعى نادر. كان يحب التأمل في السماء ليلاً، وخصوصًا حين يكون القمر ساطعا في اوقات السحر. كانت حياته باهتة، غامضة، لم يكن يشعر بسطوع كالقمر، بل كانت حياته مليئة بالعقد والحيرة والأسئلة.

في إحدى الليالي، لاحظ ظلًّا صغيرًا يتحرك على سطح الأرض كلما تحرك القمر. تبع نادر ذلك الظل مشيًا على الاقدام، سار في الحقول، تسلق التلال، حتى وصل إلى شجرة قديمة هرمة يجلس تحتها رجلًا مسنًا. عيونه لامعة وكأنها أخذت نورها من القمر، بل كانت تحاكي القمر ذاته.

قال الرجل لنادر:...

- كل من يتبع ظل القمر، يبحث عن شيء أفتقده... فعن ماذا تبحث يا نادر؟

أجاب نادر:....

- لا أعرف ... لكني أشعر بضياع، ربما أبحث عن معنى ذاتي، أو عن شيء يجعلني أضيء كالقمر!

ضحك الرجل قائلا:.....

- القمر لا يضيء وحده يا بني، بل يعكس نور الشمس... اذهب وابحث عمّا يمنحك النور، عندها ستعرف ذاتك ومن تكون...

لحظة الأمان

في ليلةٍ لم يكن فيها من الطمأنينة إلا ما يشبه النجوم البعيدة، وبينما الجنود يغطّون في نومٍ ثقيل، استيقظ هو على وقع هدوءٍ غريب، وكأن سكون الليل يصيح في روحه نداءً لا يسمعه سواه.

وقف في منتصف المعسكر، يحدّق في الفراغ، حين انشقت الهيبة عن نورٍ لم يره في حياته. تقدم منه رجل، لا يشبه الناس في وقارهم، بل في حضوره كان شيءٌ من الجلال، كأنّ الزمن وقف ليستأذن مروره. كان قد حضر الإمام العباس عليه السلام بعينه، بوجهٍ ينطق بالسكينة، وعينين تحملان رسالة فيها اطمئنان من الخوف أكيد.

ثم حدث ما أربك الوعي: أومأ الإمام العباس برفق، قال له

- اطمئن، لا تخف، أنت بحمايتي، لن يحدث لك شيء لكني اعتب عليك قلة زياراتك لنا..

فجر الضوضاء في خاطره ثم انصرف كما جاء بلا ضوضاء، تاركًا خلفه شعورًا لم يُعرف من قبل، لا هو خوف، ولا هو فرح، بل هو مزيج من سلامٌ يُسكب في القلب كما يُسكب الروح في الجسد الملتهب.

لإنبهاره بالموقف لم يستطع النطق، لم يستطع السؤال. تجمّد في مكانه، كل حواسه انحنت أمام رهبة اللحظة. لم يسعفه لسانه أن يسأل عن الطف، عن مقتل الحسين عليه السلام، عن نهاية الحرب، عن مستقبله، عن العراق... خانته الكلمات في

الحضـور، وبقــي المشــهد أكبـر مـن لسـانه وتفكيـره. لـم يكـن حلمـا قط، بل كانت رؤيا صادقة وأكيدة.

بعـد اللقـاء، سـأل أحـد الفضــلاء عمّـا رأى، فجـاءه الجـواب كـالبرد الذي يروي ظمأ القلب:......

- كـأن الوجـود كلـه قـد انحنـى فـي تلـك اللحظـة ليبـوح لـك بسـرٍ عظـيم، وكـأن الإمـام العبـاس لـم يـزر سـوى شخصـك، لأنـك خُصصـت بطمأنينـة لا تُمـنح لكـل البشـر... ومـا كـان اللقاء عبثًا، بل إشعارٌ بأن لك مقامًا لم تدركه بعد.

عـاد إلـى نفسـه، عـاد إلـى أسـئلته التـي بقـت فـي صـدره. لكنهـا لـم تكـن كمـا كانـت... لـم تعـد تبحـث عـن جـواب لكثيـر مـن الاسـئلة التـي تـدور فـي خلـده، أيقـن بـأن الإنسـان فـي الأمـور الكبيـرة مسـير أكثـر ممـا يكـون مخيـرا فيهـا، بـل صـارت الأقـدار تـرنّ فـي القلـب كنداءٍ ينتظر لحظة التجلي القادمة.

ساعة يقين

كـــان الليـــل يـــنقضّ علـــى المكـــان كوشـــاحٍ مـــن قلـــقٍ وترقـــب، والرصـاص يتطـاير فـوق الـرؤوس، مرعبًـا كـلّ نسـمة وكـلّ فكـرة. لـم يكـن المـوت بعيـدًا قـط، بـل كـان جاثمًـا علـى سـفح السـاتر، يتـربّص بنـا ويتشـمّم الخـوف فـي الأجـواء والعتمـة. وبينمـا لبثـت منـاظر الجثـث المبعثـرة فـي العـراء فـي الـذاكرة وهـي تسـتوقظ الرعـب فـي الـداخل، أنتبرنـي شـعور بـأن الـروح قـد تجفّفـت مـن شدة التوتر.

فـي لحظـة انطفـاءِ الـوهج فـي الـداخل، انبثـق نـور حلـم فـي الأفـق، بـل لـم يكـن حلمـا بـل رؤيـا طفحـت فـي أعمـاقي... جـاءتني كرجـل لـيس ككـلّ الرجـال. بهيبتـه، مرصـعة بثوبـه الأبـيض، وعبـاءة مطـرّزة بخيـوط مذهبـة، وشـال أخضـر متحولـق حـول العنـق كرمـزٍ للحمايـة. عرفتـه مـن النظـرة الأولـى كمـن لـه صـلة قديمـة بـه، أنـه الإمام أبو الفضل العباس عليه السلام، دون شكّ أو تردد.

نظــر إلــيّ بعينيــه الواســعتين، وتحــدث لــي بهــدوء مهيــب، قــال بكياسة:...

- لا تقلـق، اطمـئن تمامًـا، فأنـت فـي حمـايتي، لـن يصـيبك مكروه قط... لكنني أعتب عليك قلة زياراتك لنا.

كانـه سـكب علـيَّ دلـو مـاء بـار أطفـأ حريـق القلـق فـي داخلـي، كـان كلامـه أشـبه بمـاءٍ زلال سـقى بـه جـذور يابسـة، أشـعرني بالأمـان تسـلّل إلـى جسـدي. اسـتفقت مـن النـوم مبهـورًا، مفزوعـا، أبسـمل بـالله وأحوقـل – بسـم الله ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العلـي العظـيم،

موقنًا أن في أحلك لحظات الخوف والقلق، هناك من يرعاني من عالمٍ أوسع من إدراكي، وأقرب من نبض قلبي.

ومنذ تلك الليلة... لم تعد زياراتي إلى المقامات المقدسة مجرد طقوس، بل أصبحت لقاءات حميمية بين الروحِ والمقام، والذكر مع اليقين.

حين ايقن البرق الحقيقة

كنت في الثالثة عشرة، فتى يافع يحمل ذكاءً لامعًا ولمعةً باهرة في العين، كنت كمن يقرأ ما وراء الظاهر دون الآخرين. وفي عصر يوم قائظ من شهر آب، كنت واقفا أمام باب الدار مع ابن الجار، وإذا فجأة تظهر سحابة صغيرة بيضاء تجري بسرعة مهولة، تحمل رعدا وبرقًا وبردًا ومطرًا وكأنها مفرقعات جوية، وكأنها تدفع من قبل قوة جبارة لهول سرعتها وغزارة مطرها وبردها، يخترقها ريح لفت الاجواء بعصفها، جزلت المنطقة بثوان فقط وكأنّ هناك من يأمرها أن تدرك منطقة ما للإغاثة.

لكن الأعجب لم يكن في زخها وسرعتها؛ بل في تلك اللحظة التي شق فيها برقٌ عظيم صدر السماء، ليخط أمام عيني اسم النبي محمد ﷺ بخط ديواني نوراني من قمة الغيمة ولقاع الأرض. لم يكن ذلك حدثًا من الطقس أبدا، بل تجلّيًا غيبيًّا غيّر مسار الإدراك لديَّ إلى الأبد.

منذ تلك اللحظة، منذ تلك اللحظة بدأت أنظر لعالم الغيبيات نظرة إجلال رسخت الإيمان بداخلي دون تعليم، وبدأت أشعر أنني أعيش في طبقة من الوعي لا يدركها كثيرون. بدأت ألاحظ إشارات لا تُرى بالعين: شجرة تتحرك ضد الريح، كلمات تظهر على سطح النهر، ورؤى تنطق من الحلم كأنها وحي داخلي يشرع بالصراخ.

في المدرسة، كان الشك يتسلل إلى العقول، وموجة الإلحاد تصعد بين المراهقين، لكن يقيني لم يتزحزح قيد شعرة. كنت أبتسم أمام المشككين...

ثم جاءت ليلة التجلي. كنت على سطح البيت وحدي، والسماء تنصت للبشر. رأيت النجوم وكأنها ترسم راية بيضاء تتوسطها كلمة الله. شعرت أنني أُخترت كشاهدٍ على زمنٍ يختلط فيه الصراخ بالإيمان.

ومنذ ذلك اليوم، لم أعد أبحث عن الإشارات... لأنني صرت أنا الإشارة.

اختبار الرياضيات

قبل اختبار البكالوريا، وقف مروان تلميذ الصف التاسع أمام بوابة قدره يرتجف قلبه بقلق، يخرق صمت ساعات القاعة. ورغم أنه كان يُعرف بين أقرانه بأنه أفضل التلاميذ في مادة الرياضيات، إلا أنه تسلّلت مخاوف خفية إلى نفسه نتيجة تسرعه البديهي وطبعه العجول في كل شيء، العجلة نعمة ونقمة في آنٍ واحد؛ حيث يدرك ذاته بأنه لا يمكث في قاعة الاختبار أكثر من نصف الوقت المحدد، وهذا الطبع كان يؤرقه.

في الليلة السابقة للاختبار كان قد حلمَ حلمٌ فريد من نوعه. رأى نفسه جالسًا في قاعة الاختبار، وهو يتفحص ورقة الأسئلة، يكتب بإجابات دقيقة كأنها مملاة عليه من ذاكرة خارقة. وحين استيقظ، لم يتبقَ في ذاكرته من ورقة الأسئلة سوى السؤالين الأول والثاني. حاول استرجاع بقية الأسئلة، لكن دون جدوى. فقرر أن يكتب السؤالين ويحلهما بإتقان، كما لو كان يستعد لمعركة مصيرية.

وعندما التقى بصديقيه المقرّبين، عباس منشد ومحمد كلمراد، قبل الدخول إلى القاعة، حاول امالتهما إليه، سرح لهما وشاركهما تفاصيل الحلم والأسئلة التي

تـذكّرها، إلا أنهمـا لـم يعيـرا لــه أهتمامـا. لـم يكتـفِ بـذلك، بـل حـدّث عـددًا مـن زملائــه عنـد بوابـة المدرسـة، آمـلاً أن يعتبــروا الحـــدث نـــذيرًا أو فرصــــة. لكـــنهم قـــابلوا كلامـــه بالسخرية والاستهزاء، واعتبروه مجرد توتر لا أكثر.

مــا أن دخـل قاعـة الامتحـان وهـو مـثقلًا بعـبء التحـدي، وقلبـــه ينـــبض بمـــا يشـــبه الترقـــب الأســـطوري، ومـــا إن وُزعـت أوراق الأسـئلة علــى التلاميـذ، حتــى دهشــة مــن وقــع المفاجــأة، لــم يســتطع إخفــاء مــا فــي داخلــه؛ كانــت الأســئلة ذاتهــا التــي رآهــا فــي الحلــم بالتفصــيل والتطــابق المــذهل فــي الصــياغة والمضــمون. ارتســمت علــى وجهــه ملامـح علامـات الصـدمة والفـرح معًـا، وكأنــه أمـام لحظـة خارقة للواقع.

فــي تلــك اللحظــة، شــعر أنــه يملــك شــيئًا فريــدًا يختلــف بــه عـن الآخـرين، شـيئًا لا يُـرى، لكنـه يُشـعّ مـن داخلـه. انتشـى بإحســاس الفخــر، وتملكــه إعجــاب عميــق بنفســه، كــأنّ الحلــم كــان رســالة خفيــة أو اختبــارًا لقدراتــه المتجــاوزة للمــألوف. لـم يعـد الحلـم حلمًـا، بـل تحـوّل إلـى فصـلٍ مـن قصـة واقعيـة، وضــعته فــي مكانــة مختلفــة، أمــام نفســه أولًا، ثــم أمــام مــن ظنوا أنه يهذي.

أجـــاب عـــن الاســـئلة بافتنـــان، خـــرج مـــن القاعـــة أول التلاميـذ، انتظـر زملائـه، كانـت اجابـاتهم متفاوتـة، ولكـن أحدهم قال له..:

- يـــا مـــروان ارجـــو أن تحلـــم فـــي اختبـــار اللغـــة الانجليزية. ههههه.

ومـــن تلـــك اللحظـــة، أدرك أن أحلامـــه ليســـت مجـــرد خيـالات عـابرة، بـل امتـدادٌ لوعيـه، وانعكـاسٌ لمـا يُمكـن أن يصير عليه، مثلما صار يظن به رفاقه.

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقداح المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- القمة

وقفت معهم أشاركهم وأتسلى بتلك النار البائسة، وهي تحاول أن تزجر البرد بلطافتها، تتلوّى أمامنا في صراع واضح مع الرطوبة والعجز. ما جمعناه من أعواد الحطب لم يكن كافيًا، كانت سيقانها ضعيفة ورطبة، لكنها حاولت أن تنصف أحوالنا بشيء من المقبولية. تبادلنا الأحاديث الهامسة حول مصيرنا، نحاول أن نستسقي الأفكار من بعضنا، ونغزل شيئًا من الأمل في هواءٍ لا يرحم. لم تكن النار مجرد دفء، بل تحولت إلى حوارٍ داخلي، رمادٌ يتكلم بلغةٍ لا يسمعها أحد غيرنا. تلك النار الهزيلة تشبهنا تمامًا، تقاوم بصمت، تشتعل بشيء من الأمل، وتذوب أمام نوبات الخوف من المستقبل والصقيع.